

روايات مصرحة للكتاب

التوباء

1

سافاري

www.dvd4arab.com
Hany3H

لا يمزحون .. وسارقي الأعضاء البشرية .. والعلماء
المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيينا الشاب كي
يظل حيا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل
طبييا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..
تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق
البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H

www.dvd4arab.com

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة
(سفرية) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى)
فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال
(إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها هنا كانت
تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات
سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهل متشككين ..
بطلنا الذى سنقبله دوماً ، ونألفه ، ونتعلم أن
نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى
ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيداً وسط
أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض
أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) ..
نعيش معه فى ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح
الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة
المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين

مرحبًا بكم!!

مرحبًا بكم !

يبدو لي أنني رأيت هذه الوجوه من قبل .. لا أدري متى لكنى بالتأكيد قد قابلتها في مصر .. إننى لن أنسى هذا الوجه الذى لوحتته الشمس ، وهذه الأنسة التى تضع العوينات وتعقص شعرها ، والزميل الذى قد تساقط شعر رأسه فى عدة مواضع .. هذه اليد القوية .. إننى أعرفها .. تذكرتها على الفور حين صافحتك ..

هيه ! تعالوا إلى الداخل .. إلى حيث الظل .. سأقدم لكم بعض عصير الليمون البارد .. ويمكنكم أن تستمتعوا بهواء المكيف المنعش .. وأن تنزعوا أحذيتكم لو أردتم .. كلا .. لا تخجلوا من رائحة جواربكم فالروائح الكريهة أمر معتاد هاهنا حتى لم نعد نلاحظه !

رحلة شاقة .. أليس كذلك ؟ كيف جنتم ؟ لا بد أنكم ركبتم بعض عربات (الجيب) من (ياوندى) ..

إنه لطريق مرهق للوصول إلى هذه القرية التى تبعد أميالاً عن (أنجاونديرى) ..

هيه ! أنت ! هل لك أقارب فى (شبين الكوم) ؟ إن وجهك يذكرنى تماماً بأحد أطباء دفعتنا .. كان من (شبين الكوم) .. وكان سمحاً بشوشاً لكنى نسيت اسمه للأسف ..

مرحبًا بكم .. اشربوا الليمون ولا تخافوا .. فالليمون مطهر وهذا الماء قد سبق غليه .. لا بد من عمل هذا فى المناطق الحارة ..

هل تتعاطون أقرص الوقاية من الملاريا ؟ وهل تلقيتم لقاحات الحمى الصفراء والكوليرا والطاعون ؟ أحسنتم صنعاً .. لن نترك شيئاً للظروف كما تعلمون .. لا تنسوا أن هذا الإقليم موبوء بذبابة (تسي تسي) التى تسبب مرض النوم .. مضحك ؟ لا ليس مضحكا على الإطلاق .. فمن النادر أن يذهب المريض به إلى مكان آخر غير القبر ..

هناك كذلك أمراض (عمى النهر) ، و (كالا آزار) و .. و .. وكلها ليست مضحكة إلى هذا الحد .. ثم لا تنسوا (الإيدز) ..

مرحباً بكم ! كلا .. أنا لا أحاول أن أكون مرعياً ..
فقط أنا أضع النقاط على الحروف ..



علاء عبد العظيم

اسمى بالكامل هو
(علاء) .. (علاء)
عبد العظيم) .. سني
حالياً تسع وعشرون
سنة .. أي أنني ولدت
عام ١٩٦٦ .. عزب ،
ولا أدخن ..

هذه اللحية المحيطة
بفمي ؟ تسألون أسئلة
غريبة .. ولولم تكونوا

ضيوفي لقلت إن هذا ليس من شأنكم .. لقد أطلقتموها
هنا ولا أدري سبب ذلك .. ربما لأبدو أكثر سنًا أو
أكثر علمًا .. إن العوينات مع اللحية تجعلك تبدو
راهب علم .. هذا مؤكد ..

لماذا جئت ها هنا ؟ سؤال غريب يا (باسم)
- أليس اسمك (باسم) ؟ - لنقل إنني لم أجد نفسي
في مصر .. هناك قصة طويلة تشرح هذا .. لكن
الحين ليس حينها ..

أنا سعيد ها هنا .. أشعر أن الناس يحتاجون إلى
وأشعر أنني مفيد .. إنه موضع خطر بعيد وحياة
شاقة .. لكن الأرض السوداء هي ما تعطي التفاح
والزهور ..

هيه ! ارفعي صوتك فأنا لا أسمعك .. ماذا ؟
تسألين عن أكلة لحوم البشر ؟ إنهم موجودون في
الجنوب الشرقي .. لا تنسى أننا نجاور (الكونغو) ..
لكني لم أرهم ولا أتمنى أن أراهم ..

نعم .. هي تجربة غريبة يخوضها شباب مصري
ها هنا .. لكن هناك سوى العنات ممن يعملون مع
منظمة الصحة العالمية ، وصندوق التعاون الإفريقي ،
و (أطباء بلا حدود) ..

فقط أنا المصري الوحيد الذي يعمل في جهاز
(سافاري) ..

إن أشياء غير عادية ستحدث حالاً ..
لكم أن تراهنوا على ذلك ..

★ ★ ★

١- عوامل طرد !

شاب مصري آخر من الذين يملنون الطرقات في ليالى الخميس .. يقف فى شرفة دارهم عصراً بسرورال المنامة والفائلة الداخلية ، وجواره على السور تقعى هرتة ، مشمشية اللون ناعسة العينين تقر ..

يأتى أصدقاؤه ينادونه من الشارع مصفرين ، فيهرع باحثاً عن قميصه الذى أخذه أخوه وخرج غالباً .. يفتح درج مكتبه الذى يحوى كتب (مصطفى محمود) و (أنيس منصور) بحثاً عن زجاجة الـ (بروت) ذات القلادة المعدنية .. يغمر وجهه بالعطر ، ثم يخرج وفى جيبه خمسة جنيهات عليه أن يبقى منها أكبر قدر ممكن ..

شاب يدخل السينما ويتشاجر لأن رواد (الترسو) يقذفون الصالة بلفافات التبغ المشتعلة .. ثم يخرج مع أصدقائه ليتشاجر من جديد معهم ؛ لأن كلا منهم

يصر على أن الحسناء التى ترتدى (الجينز) ابتسمت له هو بالذات ..

شاب مصري آخر قضى أعواماً فى دراسة الطب .. واعتاد على أن يناديه الجيران ليقيس ضغط (أم ممدوح) فى الرابعة صباحاً ، حينما تصر على أنها تموت . وهى - بالمناسبة - تموت منذ عشرين عاماً . ويتخرج فى الكلية .. ثم يمرّ بسنوات التجنيد .. ويجد نفسه طبيباً مقيماً فى مستشفى صغير من مستشفيات الأقاليم ..

هذا الشاب هو - بالصدفة - أنا ..



شاب مصري آخر يقضى أمسياته فى النوبتجيات ، ثم يصعد إلى مسكن الأطباء الذى يحوى منضدة وفراشين وبورصاً وصرصورين وتلفزيوناً من القرن الرابع عشر بلا صوت ولا صورة ، لكن حالته ممتازة برغم ذلك .

يسمع كلمات هامسة من التومرجى .. فيفكر ويفكر .. ثم يقتنع فيذهب لتفقد موقع العيادة .. هناك كومتان من القمامة .. العيادة تقع بجوار الكوم الأكبر ..

فلا يبقى سوى اللافتة .. لافتة يكتبها (بسيونى)
خطاط المستشفى بخطه الرديء : دكتور (علاء
عبد العظيم - باطنى - حميات - أطفال - نساء وولادة) ..
ويأتى أربعة مرضى فإذا هم جميعاً من أقارب
(بسيونى) وكلهم لا يريدون الدفع ..

وتمر الأيام ثم تظهر (نسرين) .. وهى - كما هو
واضح - طبيبة شابة حسنة لا يحيط بأصابعها أى قيد
ذهبى قبيح .. وهى تخاف كل شىء وتحتاج إلى
الجميع .. لهذا كان لا بد أن يهيم بها حياً ..

ويحدث كل ما هو متوقع فى هذه الأمور .. الزيارة
الليلية لدارها مع (الحاجة) وشقيقه الأكبر ..
والجلسة الطويلة إياها .. والبونبون المشحم الذى
يلتصق بالأصابع والأسنان ..

ثم السؤال عن الإمكانيات المادية ..
الراتب مائة وعشرون جنيهاً بالتمام والكمال ..
العيادة تدر مائتى جنيه قابلة للزيادة ..

- « سأشترى جهاز رسم قلب بالتقسيط من معرض
النقابة .. هذا سيجعل عهداً من الرخاء يبدأ .. » .

هنا يخبرك الأب - فى أدب - أن الأربعمائة جنيهه

صالحة جداً لبدء عهد من الرخاء للصراصير .. لكنها
لا تفتح بيتاً فى (الهندوراس) ..
طبعاً لا توجد شقة باعتبار أن شقة (الحاجة)
واسعة بما يكفى ..

وحين تنتهى المقابلة يعرف جيداً أن طلبه قد رفض ..
شاب مصرى عادى جداً .. أليس كذلك ؟

★ ★ ★

إن جراح القلب شىء مسل .. وهى طريقة مضمونة
لتجد ما تفعله فى الأمسيات الهادئة : تتألم .. تكتب
شعراً رديئاً وتحسو أقداح القهوة والشاي الثقيل مردداً :
سيرون جميعاً .. الأوغاد ! وتستمع بلذة أن تكون
مظلوماً لم يفهمه أحد ..

لكنك تدرك أن الأمر جد خطير .. فراتبك ودخل
العيادة غير قابلين للزيادة .. وأسعار الشقق مرعبة ..
إن طريقك طويل ضيق يمتد إلى ما لا نهاية .. بمعنى
أنك لن تجد انفراجاً ولو مشيت ألف عام ..

يقولون إن الأمل موجود .. لكنك لا تجرؤ على
الاعتراف بذلك .. وفى الوقت نفسه يبدو اليأس شيئاً
مبتذلاً مستهلكاً ..

وتواصل ما تفعله الحيوانات دائماً .. البقاء حياً ..

يسألك أهل المرضى عن سيارتك ، فتقول إنها فى
(عمرة) ولهذا عليهم أن يدبروا لك وسيلة انتقال ..
تسألك الممرضة السمراء ذات العينين الراقصتين عما
إذا كنت مضرباً عن الزواج ، فتدعى أنك لا تفكر فيه
قبل أن تظفر بمكانة علمية مرموقة .. يسألك الجميع
عن النجاح فتقول إنه قريب جداً ..

شاب مصرى عادى جداً .. أليس كذلك ؟

★ ★ ★

كنت تزداد عصبية وتزداد ضيق صدر ..
ربما كنت سترحل فى جميع الظروف .. إلى الشرق
أو إلى الغرب أو - ربما - لأعلى ، حتى لو لم تظهر
(عفاف) فى حياتك .. لكنها بالتأكيد قامت بتعجيل
ما حدث ..

إنه الخطأ الشائع لدى صغار الأطباء .. (عفاف)
فتاة شابة فى السابعة عشرة من عمرها .. آلام فى
صدرها فى الناحية اليسرى .. فحصها صاحبنا ورأى
أن الأمر لا يزيد على آلام روماتزمية تحدث كثيراً ..
لكن الحالة تزداد سوءاً .. وفى المساء علم أنها
فى المستشفى مصابة باحتشاء بطينى (وبلغتنا نقول :

إن جزءاً من عضلة قلبها مات) .. ويبدو أن شيئاً ما
لم يكن على يرام فى شرايينها التاجية .. وهى حالة
نادرة فى سنها ..

كان هناك طبيب أكثر حذقاً وأكبر سنناً رآها ..
وتساءل : لماذا لم تزل آلامها مع أدوية الروماتزم ؟
وقام برسم قلبها ، فعرف ما عرف ..

لم تمت (عفاف) .. ولو ماتت للحققت بها .. لكنك
طفل لا يسمح لنفسه بالفشل .. ولا يلتمس لنفسه
الأعذار ..

لكل جواد كبوة .. و (حتى هومير يحنى رأسه)
كما يقول الإنجليز .. لكن كبوة الطبيب قد تكون قاتلة ..
وشعرت أنك لم تعد قادراً على ممارسة مهنتك فى
هذه المدينة الصغيرة .. بالتأكيد يرمقك الجميع
ويتهامسون .. كلهم يعرفون .. كلهم يتهمون ..
وكانت هذه هى عوامل الطرد ..

★ ★ ★

٢ - عوامل جذب !

كان إعلانًا في جريدة يومية .. وكان مكتوبًا بالفرنسية ..

أنا أتكلم الفرنسية وأكتبها أفضل من كثيرين في ظروفى ، ربما لأن هذه اللغة كانت تبهرنى دومًا بقيودها فى القواعد والنطق .. لست أدري كيف يسبب الرعاع بعضهم فى الفرنسية مرغمين أنفسهم على ضم الشفاه ، ودقة تصريف الأفعال ..

المهم أنى عرفت أنهم يريدون أطباء للعمل فى إفريقيا .. وبدا لى هذا جديرًا بالتجربة .. أرسلت أوراقى وطلبونى للمقابلة الشخصية ..

كنت متأنقًا وكان هناك بعض السادة المتأنقين بدورهم ، الفاخرين جدًا .. أنا لا أعرف شكل (باستير) لكنى أشك فى أنه كان معهم فى تلك القاعة ..

ودارت محادثة فرنسية عن ظروفى .. عن دراستى .. عن السبب الذى يجعلنى أعتقد أنى صالح للعمل فى إفريقيا السوداء ..



ودارت محادثة فرنسية عن ظروفى .. عن دراستى .. عن السبب الذى يجعلنى أعتقد أنى صالح للعمل فى إفريقيا السوداء ..

ثم قال لي أكبرهم سنًا وأعلاهم مقامًا كما هو واضح :

- « إن إفريقيا ليست مكانًا للسياحة خاصة حيث يفترض أن تذهب .. فما الذي يدعو شابًا مثلك لترك حياة المدينة إلى هناك ؟ » .

قلت له وأنا أزن كلماتي جيدًا :

- « ربما لأنني لم أجد ذاتي ها هنا .. وأريد البحث عنها في الأحرار .. » .

سألني وهو ينزع عويناته .. ويغمض عينيه إرهابًا :

« وما هو المبدأ الذي ستسير عليه هناك ؟ » .

فكرت حينًا ثم قلت العبارة التي اجتهدت أسبوعًا في تأليفها وإعرابها :

- « إن حياة الإنسان ورفاهيته هي المبدأ الوحيد الذي يستأهل أن نحققه بأي ثمن .. » .

تبادلوا الكلمات همسًا .. ثم رأيت الرضا على وجوههم ..

قال لي محاورى وهو يضع عويناته من جديد :

- « نحن لم نتفق بعد بشأنك .. لكن - لو تم قبولك -

سيتم ضمك إلى وحدة (سافارى) للأمراض فى

المناطق الحارة .. هل سمعت عن (سافارى) ؟ »

كدت أردد بالإيجاب لكنى خشيت أن يكون قد نصب لي شركًا ما .. لذا هزرت رأسى نفيًا وأنا أأمل ألا يكون الجهل خطيئة ها هنا ..

قال كأنما يتوقع عدم معرفتى :

- « إن (سافارى) منظمة دولية تعمل على ملاحقة

المرض فى أحرار إفريقيا وأدغالها .. »

- « هل هى تابعة لمنظمة الصحة العالمية ؟ »

- « لا .. ولا (اليونيسيف) .. إنها مستقلة تمامًا .. »

- « هل تمويلها يهودى ؟ »

تبادل النظرات مع أصدقائه .. ثم قال فى ضيق :

- « إن (معاداة السامية) غير واردة هنا .. »

قلت مصممًا على توضيح هذه النقطة :

- « أرجو المعذرة .. لكنى أرجو أن تسمح لى

بالكلام بصراحة .. »

- « تفضل .. »

- « لقد اعتدنا على أن يكون تمويل هذه المنظمات

الغامضة يهوديًا .. لا بأس .. أنا موافق .. لكن فى

كل مرة يتضح لنا أن الفارق بين اليهودى والصهيونى

باهت جدًا أو غير موجود .. أنا لا أخلط بين (يهودى)

و (صهيونى) .. لكنهم هم الذين يخلطون ..
والصهيونية تعنى عندنا - معشر العرب - (إسرائيل)
ولا شىء سواها .. »

قال فى ذات الفتور :

- « أفهم وجهة نظرك .. لكن دعنى أؤكد فى أمارة
أن (سافارى) تمول من بعض أثرياء الولايات المتحدة
وبنوك سويسرا وبعض دول الخليج . لا يوجد رأس
مال صهيونى فى الموضوع إذا كان هذا ما يقلقك .. »
ثم ناولنى منشوراً مطويّاً طبع على ورق مصقول ..
وقال :

- « هنا تجد تاريخ (سافارى) وكيفية إنشائها ..
حاول أن تقرأه فى عناية .. »

- « وأين سأعمل فى حالة القبول ؟ »

- « فى (الكاميرون) أو (الجابون) غالباً .. وأرجو
أن تبقى على اتصال بنا فى الأيام القادمة .. »
وخلع عويناته بمعنى أن المقابلة قد انتهت ..

★ ★ ★

نسيت كل شىء عن الموضوع فى الأيام التالية ..
فمن المؤكد أن كلامى عن اليهودية أحنق الرجل ..

وربما كان هو ذاته يهودياً .. لكن لا حيلة لى فى هذا ..
لا أريد أن أنزلق بحسن نية إلى منظمة دولية مريبة ،
ثم أجد أننى صرت رقماً إحصائياً تفخر به (إسرائيل) ،
حين تتشددق بعدد العرب الذين يتعاونون معها ..
لكن الهاتف دق فى بيت أبى يوماً .. وعرفت أنهم
يريدوننى لاستلام تذكرة الطائرة وإعداد أوراقى ..
رباه ! بهذه السرعة !؟

عندها شعرت بأحشائى تتقلص .. وللمرة الأولى
أدرك أن السفر ليس بهذه السهولة التى كنت أحسبه
بها .. وسفر لأين ؟ ليس إلى أوروبا حيث يسافر
مئات من الدارسين .. ولا إلى الخليج حيث يسافر
آلاف من الأطباء الشبان .. بل إلى (الكاميرون) ..
(الكاميرون) التى لا أعرف موضعها على الخارطة ..
ولا أعرف أن أحداً زارها قط ..

وهرعت إلى الأطلس ودائرة المعارف أعرف شيئاً
أو شينين عن هذا البلد .. ثم هرعت أفتش عن
المنشور الخاص بـ (سافارى) الذى لم أعد أذكر أين
وضعتة بعد عودتى من المقابلة الشخصية ..

آه !.. ها هو ذا ..

★ ★ ★

وحدة (سافارى)

- « سنلاحق الأمراض فى إفريقيا السوداء ، كما لاحق
أباؤنا الأسود والنمور فى رحلات الـ (سافارى) .. »
كانت هذه كلمات البارون (فون رامشتيت) عام ١٨٥٧
لضيوفه فى (فيينا) ، وهو يضع البذرة الأولى لمنظمة
(سافارى) ، التى وضعت على عاتقها محاربة الوباء
فى قارة محرومة من الخدمات الصحية .

واحتاج الأمر إلى مائة عام كى يتحقق الحلم ،
فعدت (سافارى) منظمة دولية لها صلة مباشرة
بالصحة العالمية ومركز الـ CDC (السيطرة على
الأمراض المعدية) . وصار لدى (سافارى) ميزانية
هائلة تبلغ مليارا من الدولارات ، ويعمل تحت لوائها
أكثر من ألف طبيب فى أكثر من خمسة عشر بلدا
إفريقيا ..

لقد تمكن أطباء (سافارى) من اكتشاف ثلاثة
فيروسات جديدة ، وسلالة غير معروفة من الديدان
الأسطوانية ، ووصفوا وباء (الناكالاتجا) فى
(أوغندا) ، كما أنهم أنقذوا الألوف من ضحايا الحروب
الأهلية فى (زانير) و (ليبريا) و (رواندا) .

وبهذا يضيف أطباء (سافارى) الكثير إلى رفاهية
الجنس البشرى وتقدمه ويثرون علم الطب
باكتشافاتهم التى لا تنتهى .

لقد اشتهر (ألبرت شفائتزر) الطبيب والفيلسوف
العظيم فى أرجاء إفريقيا ، وهو الذى لم يكن يحمل
سوى أدواته الطبية وكتابه المقدس ومسرحيات
(شكسبير) وعلمًا لا حدود له .

اليوم يحاول ألف طبيب من كل الجنسيات أن
يصيروا ألف (ألبرت شفائتزر) .

★ ★ ★

قرأت المنشور وبدأ زعري يتضاءل .. يتضاءل ..
ثم بدأ بعض الحماس ينمو .. ينمو .. وبدأت أشعر
بأننى - ربما - واجد ذاتى هناك ..

وقضيت الوقت - كما لكم أن تتوقعوا - فى توديع
الرفاق ، وحزم حقائبى وشراء ثياب داخلية بدل تلك
التى أبلاها الغسيل .. وجوارب غير مثقوبة وفرشاة
أسنان جديدة ..

وفى مكتب (سافارى) أعطونى عددا لا بأس به
من التطعيمات ، وأعطونى أقراصا للوقاية من الملاريا

وعسى النهر والفيلايريا .. مع قائمة من التعليمات
بصدد الطعام وشرب الماء ..

- « النصيحة الأهم .. » - هي أنهم قالو لى - « لا تأكل
أى طعام لا يتصاعد الدخان منه .. الخضراوات
الطازجة محرمة كالجسيم .. »

كنت أشعر بأننى تحولت إلى مزرعة باكتريا حية ..
وأن جهازى المناعى يصرخ احتجاجاً من كل الأجسام
المضادة التى يطالبونه بأن ينتجها .. أعتقد أن الحمى
الصفراء ليست أكثر فظاعة من لقاحها ..

وفى ليلة السفر لم يغمض لى جفن ..

وفى السادسة صباحاً سمعت من تحت شرفتى
كلاكس (يا واد يا دقدق يابن الإيه) الذى يستعمله
(أشرف) صديقى .. وهو جزء من ثقافته اكتسبه من
سانقى اللورى ، ويفخر به كثيراً ..

كان هذا هو موعد الانطلاق إلى المطار ..

حسن .. لا داعى لوصف لحظات الوداع ..
فالحقيقة هى أنه لم يكن هناك وداع لأنى عبرت
الصالة سريعاً وسط الوجوه الواجمة .. لن تكون
هناك قبلات ولا دموع .. الأغبياء فقط يطيلون عذابهم

بهذه الطريقة .. كلا لا داعى لأن أنظر إلى أمى ..
فقط أراها فى ركن النظر بقعة داكنة ترتجف وربما
تنهنه ..

- « مع السلامة .. »

قلتها .. وحملت حقيبتي الثقيلة الوحيدة ورحلت
أترنج فى الدرج نازلاً ..

وبعد دقائق كانت سيارة (أشرف) المتهاكة تهرع
ملهوفة إلى المطار .. ولم يقل (أشرف) شيئاً ؛ لهذا
قررت أن أقول أنا ..

- « (أشرف) .. أنا مضطر لهذا .. فمصر أضيق

من أن تتسع لى .. »

قال دون أن يبعد عينيه عن الطريق :

- « لكن (الكاميرون) ليست بالاتساع الذى تحسبه ..

أنت الأحمق الوحيد الذى يفر من وضع سيئ إلى
جهنم ذاتها ! » .

- « وهل سمعت عن أحد زار (الكاميرون) ؟ من

قال إنها جهنم !؟ »

- « أدغال وملاريا وحمى صفراء .. أراهن على أن

النمور ستلتهم مؤخرتك قبل أن تعود إلى هنا نادماً ،
وتبحث عن عقد عمل فى الخليج .. »

٢ - أنجاونديري ..

(أنجاونديري) من المدن المهمة التي تقع شمال (الكامبيرون) .. ولأنها في الشمال فهي دانية جداً من حدود (تشاد) و (نيجيريا) ..

إن (أنجاونديري) هي - بشكل أو بآخر - أقرب إلى مدينة نيجيرية منها إلى مدينة كامبيرونية ، والواقع أن جنوب (نيجيريا) هو أصلاً جزء شمالي من (الكامبيرون) تم ضمّه إلى الأولى بعد الحرب العالمية الثانية ..

أما ما نعرفه باسم (جمهورية الكامبيرون المتحدة) فقد انضم إلى مناطق النفوذ الفرنسي في الجنوب .. وكانت المنطقة التي بدأت عملها فيها تبعد أميالاً عن (أنجاونديري) .. لكنها في نطاقها .. كما أن الوحدات الريفية المحيطة بالمركز عندنا تقع تحت الإدارة الصحية لهذا المركز ..

والآن دعني أقدم لك وحدة (سافاري) في هذه

- « إن الراتب ألفا دولار شهرياً .. »
- « هذا جميل .. لكن لا بد أن تكون لك يد لم تتأكل من الجذام كي تتقاضى الراتب بها ! »
تنهدت في سأم .. وعدت أرقب الطريق ..
لن تلتهم النمر مؤخرتي ، ولن يأكل الجذام يدي ..
أنا أعرف أنني سأنجح .. حتماً سأنجح ..
وارتفعت الطائرة لتعبر الفجوة بين عالمين ..



www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

المنطقة ، والتي تعتبر الوحيدة من نوعها فى
(الكاميرون) ..

★ ★ ★

يشبه مبنى (سافارى) حرف (لام) اللاتينى (L) ..
ويقع فى مساحة أنيقة من الحدائق المعتنى بها
جيذا .. وتحيط به شبكة من الطرق الممهدة ..
الخلاصة أنه يبدو كقطعة من أوروبا .. ولا علاقة له
بكل الفقر والتوحش المحيطين به ..

توجد بعض السيارات من طراز (لاندروفر)
وعربة إسعاف .. وعربة أو اثنتان من طراز (بيجو)
تخصان مدير الوحدة ..

فإذا سمحت لى بأن ندخل المبنى ؛ يمكننا أن نجتاز
ممرًا مرصوفًا يزدان على جانبيه بالزهور التى
يوسفنى أنى لا أذكر اسمها ..

فى النهاية تجد بابًا زجاجيًا كتب عليه بالفرنسية :
(ادفع) .. فتدفع .. لتجد نفسك فى قاعة استقبال
مكيفة الهواء ، وموظفة استقبال إفريقية تسألك فى
شك عن وجهتك ..

كلا .. المرضى لا يدخلون من هنا .. بل هم

يقصدون إلى العيادات الخارجية والطوارئ ، وكلها
موجودة فى الطابق الأرضى من المبنى ، فى الذراع
الطويلة لحرف (L) اللاتينى ..

فلو سمحت لى بالخروج من الباب الخلفى
للاستقبال ، لرأيت مشهدًا غريبًا يتناقض مع كل هذا
الثراء وهذه الأناقة ..

ستجد أطفالا يعوون كالذئاب متعلقين فى أثناء
أمهاتهم الضامرة .. وشيوخا مكفوفين بفعل الجذام
يتكئون على عصيتهم بأيد متآكلة .. وشابة سوداء
محمولة على محفة فى غيبوبة عميقة ، ربما بفعل
مرض النوم أو الملاريا المخية .. وشابًا يتحامل على
ساقه التى تنزف دمًا من جرح يشى بأنه نهش بأنياب
وحش ..

هل لى خبرة فى طب الطوارئ ؟

بالطبع لى .. وخبرة هائلة .. إن من لا يجيد طب
الطوارئ فى قلب إفريقيا هو - حتمًا - أحمق .. ثم إن
الأمر يحتاج إلى سعة خيال .. فالتعامل مع من
التهمت التماسيح ذراعه ، أو سقاه الساحر منقوع
(الكاسافا) المسموم ، لهو أمر لا تجده فى الكتب ..

لكن حكايتنا اليوم ستكون من معزل الحميات ..
صبراً .. فلم يأت الوقت لهذا بعد ..

★ ★ ★

لدينا في وحدة (سافارى) مائتا موظف .. إنها
وحدة ضخمة حقاً ، لكن الوجوه التى يمكن أن تعلق
بذاكرتك لا تتجاوز عشرة وجوه .. وأنا لا أتعامل إلا
مع هؤلاء .. أو أتجنب التعامل مع بعضهم بالذات ..
سأقدمهم لك واحداً واحداً ..



البروفيسور

موريس بارتليه

• بروفيسور (موريس
بارتليه) .. رئيس
الوحدة .. فرنسى
صميم .. كنت أتمنى
أن أقول إنه يبدو
كـ (باستير) .. لكن
الحقيقة أنه شىء
بدين مترهل يبدو
أقرب إلى الزبد منه
إلى الإنسان ..

يقولون إنه عبقرى فى علم الميكروبات ، وإنه من
سادة معهد (باستير) .. الحق أنى لم أجرب هذا ..

ولم أقرأ اسمه قط فى أى مكان إلا على جدار مكتبه ..
وهو كرئيس لا بأس به .. لكن تعييه تلك الحاجة
الملحة إلى تبرير نفسه وأفعاله ، مما يشى بضعف
أصيل فى الشخصية ..

• بروفيسور (كارلو سباتزاتى) .. إيطالى .. جراح
بارع حقاً .. ولطيف المعشر كما يصورون الإيطاليين
فى الأفلام الخفيفة .. وسيم كالشمس ، ثرثار كببغاوات
الأمازون ، ذكى كالشيطان ..



آرثر شلبى

• بروفيسور (آرثر شلبى)
- بكسر الشين وتسكين اللام -
أستاذ طب المناطق الحارة
الأمريكى .. وهو أمريكى جداً
جداً .. بارع فى علمه لكنه
خبث .. وأنصحك ألا تثق به
كثيراً ..

• بروفيسور (ديفيد جيديون) .. إنجليزى وأستاذ
علم الأمراض .. واضح لكل من قرأ التوراة أن اسمه
يفوح بيهوديته كنجمة سداسية .. رجل وقور وصموت ..
لكنه بالتأكيد لا يطبق رؤية ظلى على الأرض ، كأنما
أنا من بغض طلعتى أمشى على كبده ..

• بروفسور (هانز شيفرن) .. ألماني تخصص في علم المناعة .. وقد عمل لفترة في معامل شركة



(شيرنج) .. وهو حجة في علمه ..

• د. (إبراهيم ليفي) شاب

إسرائيلي .. طبيب شاب

تخصص في طب العيون ..

وأنا لا أظفقه وهو يمقتني ..

علاقة بسيطة جداً أدركها

الجميع ها هنا ، لهذا يحاولون

أن يبعدونا عن أي عمل

مشارك ..

إبراهيم ليفي

• د. (برنادت جونز) .. زهرة

(سافاري) و (دلوعة)

المستشفى .. وهي طبيبة

أطفال بارعة الحس ، ويبدو

أنها تعتبرني صديقها .. وأنا

فخور بذلك كما لك أن

تخمن .. هي (كندية) ..

وتعشق الأطفال إلى حد

الخيال ..



برنادت جونز

• د. (ماي فاي لين) .. زهرة أخرى من الصين ..
ولا أحد يفهم لغتها الفرنسية ولا الإنجليزية ..
ولا أستبعد أن نكتشف فيما بعد أنها ليست طبيبة ،
وأنها لا تدعى (ماي - فاي - لين) ، وأنها غير مختصة
بأمراض النساء والتوليد .. لكن الكل يحب وجودها
ها هنا ..



دولا لوبولو

• د. (دولا لوبولو) .. من

الأطباء الأفارقة القلائل ها هنا ..

وهو مختص بالأمراض الباطنة ..

لكن عمله الأساسي هو أن

يشرح لقومه ما نريد منهم ..

ثم يشرح لنا لماذا لا يطيعنا

قومه .. وعامة لا يمكن

الاستغناء عنه لأنه خبيرنا

ومترجمنا ومرجعنا في عادات

الأهالي وحاجاتهم النفسية ..

ربما كان هؤلاء هم الوجوه البارزة المرموقة في
وحدة (سافاري) .. أما من بقى في المستشفى
فدورهم شبيه بدور (الكومبارس) المتكلمين في فيلم
سينمائي ضخم ..

٤ - العيون التي تقطر دماً !

سمعت المرأة الحشرجة فهرعت إلى الكوخ لتري ..
كانت قد انتهت من نشاطها اليومي الصباحي
المعهود ، فقامت بملء الجرار وحلب الماعز وخبزت
معجون الموز ، وطحننت الحبوب ، وأشعلت الموقد
و ... و ... وقد حان الوقت لتتعم ببعض الراحة ..
لكنها سمعت صوت الحشرجة ، فهرعت إلى الكوخ
لتجد (جومبا) زوجها راقداً على الأرض يتلوى ..
كانت تعرف أنه لم يكن على ما يرام ليلاً .. كان
محموماً وعيناه كقدحي دم .. وكان يهذي نوعاً ..
لكنها - في هذا الصباح - عرفت أنه مريض جداً ..
الدم يسيل من فتحات جسده التسع ، كأنه كيس دم قد
تم ثقبه في عدة مواضع ..
سألته عما به بلغتها (البانتويدية) الغليظة ..
فراح يردد دون كلال أن ما به هو (داوا) .. (داوا)
قوية ..

هل أنا من الأبطال أم (الكومبارس) ؟ إتنى أترك
لكم تحديد الإجابة في الصفحات القادمة ..
والحقيقة ها هنا هي أن (سافارى) آلة عملاقة ..
فيها تروس كبيرة وتروس صغيرة .. لكن كل ترس
يؤدي عمله في موقعه بالذات .. وغيابه سيؤدي حتماً
إلى تعطل الآلة .. فلا يهمنى حجم ترسي كثيراً ..
رباد ! إنهم بحاجة إلى ها هنا !



www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

و (الداوا) لمن لا يعلم هي السحر الأسود عند
 الأفارقة .. وهي لفظة موجودة في كل موضع في
 إفريقيا السوداء .. الأطفال يموتون بالإسهال بسبب
 الـ (داوا) .. الشيوخ يلفظون أنفاسهم ليلاً بسبب
 الـ (داوا) .. إن الأفارقة لا يؤمنون بالمرض ويعتقدون
 أن السحر هو التفسير الوحيد لأي شيء سيئ ..
 وهكذا لم يعد أحد قادراً على إنقاذ زوجها سوى
 الساحر ..

هرعت إليه في كوخه ، وكان جالساً - كعادته - أمام
 قدر كبير يداعب قلايته المملأى بأنياب القطط الوحشية ،
 ويترنم للأرواح .. وكان وقوراً يريد الحفاظ على
 (البرستيج) المهني الخاص به .. لذا اشترط عليها
 أن تجلب له المريض حيث هو ، على الأساس الشهير
 (اللي عايزنى بيجي لى أنا مباروحش لحد) ..

وتعاونت مع أربعة رجال أقوىاء على حمل زوجها
 الذي ينزف من فتحاته التسع إلى الساحر في كوخه ..
 قام بفحصه بدقة .. وفتح فاه .. وأدخل إصبعه في
 أنفه فخرج ملوثاً بالدم .. ثم بدا على وجهه الذي
 يلتسع بالعرق أنه فهم ..



لكنها سمعت صوت الحشرة ، فهزعت إلى الكوخ لتجد
 (جومبا) زوجها راقدًا على الأرض يتلوى ..

- « آه .. ! .. داوا .. ! »

لم يكن في هذا جديد ، لكن الساحر أعلن أن الأرواح الشريرة قد سكنت جسد زوجها .. وعليه أن يطردها .. سيكون هذا عملاً شاقاً لكنه سيؤديه عن طيب خاطر مقابل ثلاث دجاجات بياضة ..

وتم الاتفاق سريعاً .. فحملوا جسد المريض الذي يتساقط منه الدم دون جروح إلى ساحة القرية ، وأرقدوه هناك ..

واحتشد الغلمان العراة يرمقون المشهد في استمتاع ..

وكعادة السحرة في هذه المناطق ؛ قام الرجل بوضع وعاء خشبي هائل الحجم على صدر المريض .. ثم وضع قدمه الحافية على بطنه .. ورفع (نبوته) في الهواء وراح يهوى به بعنف .. ليدق دقاً حثيثاً على الوعاء .. كأنه يسحق الحبوب في الهاون ..

إنها الطريقة المضمونة لطرد الأرواح الشريرة ، لأنه ما من روح تحترم نفسها يمكن أن تتحمل كل هذا الصخب .. بل إن هذه الوسيلة قد تؤدي لطرد روح المريض نفسه ..

وقد كان .. فبعد دق استمر بضع دقائق كف الزوج عن الأنين والحركة .. وبدا واضحاً للواقفين أنه لن ينهض ثانية ..

أعلن الساحر أن الرجل قد مات لأن جسده شرير يأبى ترك الأرواح ..

ودعا إلى التفرق لأنه ما من شيء آخر يمكن عمله ..

وعندما أقبل المساء كانت المرأة تشعر هي ذاتها بأنها ليست على ما يُرام .. وعند عصر اليوم التالي كانت قد ماتت ..

★ ★ ★

شهد الأسبوع التالي أحداثاً غريبة ..

في البدء شعر الساحر نفسه بسخونة وتوعك .. وكان يعرف أن الأرواح الشريرة لا تجرؤ على الدنو منه ، لهذا لم يسمح لأحد أن يدق الهاون الخشبي فوق صدره ..

كان واثقاً من أن أحد أعدائه دس له السم ، لهذا انفرد بنفسه في الدغل المجاور للقرية ، وراح يحاول القىء مستعملاً مزيجاً من الأعشاب صنعه بنفسه ..

بيد أن المحاولة لم تسفر إلا عن تفجير نافورة دم
من أحشائه .. ومن عينيه سال الدم مدراراً ..
ووجدوه في الصباح جثة هامدة في الدغل ، وهنا
فقط بدعوا يشعرون بأن الأمور ليست على ما يُرام ..
فهذه (داوا) غير معتادة .. (داوا) مستوردة عنيفة
الوطء ..

لقد مات الساحر ، وقرية بغير ساحر هي قرية منتهية ..
لذا سارعوا بتعيين ساحر مرتجل يمت بصلة قرابة
للزعيم ، وهو - للأسف - لا يحفظ تعاويذ الشياطين
كلها .. لكن ما باليد حيلة ..

واتضح عدم كفاءة الساحر في الأسبوع التالي ..
فقد بدأت الوفيات تزداد .. كلهم مصابون بالمرض
الذي قرروا تسميته بـ (كافاموجورو) .. ويبدو أن
معناها (العيون التي تنزف دماً) وهي تسمية ملائمة
جداً ..

وفي كل مرة يبدأ المرض بسخونة وألم في
العضلات واحمرار في العينين .. وبعد يوم أو أقل يبدأ
النزف الذي يقتل خلال ساعات أو يوم آخر في أفضل
الظروف ..

رباه ! لقد كان وباء ألعن من أي وباء عرفوه ..
يموت المريض في الصباح ، ويموت لحادوه في
الصباح التالي ، ويموت لحادوا اللحادين في الصباح
بعد التالي ..

وأحياناً كان الرضيع يشكو من الحمى .. ثم تموت
أمه بالداء بعد ساعات .. وربما يعيش بعدها يوماً قبل
أن يأتي دوره ..

لقد عمّ الهلع والرعب القرية الآمنة ..
وفي ذعرهم لجأ الأهالي إلى أول خطأ في علم
الطب الوقائي : بدعوا يهجرون قريتهم ..

كان عدد سكان القرية ثلاثمائة ، مات منهم أربعون
في أسبوع واحد .. وراح مائة يحاولون الرحيل
سريعاً .. لا أحد يلومهم .. لكنهم بهذا ينشرون
العدوى في أرجاء البلاد ..

كانوا عازفين عن حرق الجثث .. فديانتهم تحرم
هذا حتى لا تتعقبهم الأرواح . لهذا كانوا يدفنون
الموتى جالسين بطريقتهم البدائية ، ولم يكونوا
يلمسونهم لأن الوقاية تقتضى ذلك .. ولكن لأن
قواتين (التابو) الصارمة تجعل لمس الموتى جرماً
فاحشاً ، ولعل هذا خير ما فعلوا في هذا الموضوع .

وسرعان ما بدأ التفاعل المتسلسل الفيزيائي
الشهير ..

بدأت حالات المرض تظهر في ثلاث قرى .. ثم
راحت كل قرية تشعّ الداء إلى ما حولها ..

وفي نهاية شهر منذ سمعت المرأة حشرجة
زوجها ؛ كانت هناك ست قرى تعاني من (العيون
التي تنزف دماً) ..

وكان لا بد للسلطات أن تشعر بالأمر ، فهناك
حالتان في مستشفى (ماروا) في الشمال أثارتا حيرة
الأطباء بكل هذا السيل من الدماء والنهائية الصاعقة
التي لا تبقى ولا تذر ..

لكن المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية شعر
بأن الأمر يبدو مألوفاً .. وتمت عدة اتصالات مع
مركز (CDC) ..

وبدأت لفظتا (إيبولا) و (لاسا) تترددان ..

★ ★ ★

هـ - عقد الحميات النزفية ..

يقولون إن الفترة بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٧٧ هي
- بحق - عقد الحميات النزفية الفيروسيّة .. وخلفت
هذه الفترة المرض وعذاب الاحتضار من (أوغندا)
حتى (ألمانيا الغربية) ، ومن (نيجيريا) إلى
(سيراليون) (*) ..

لعل الحمى الصفراء هي أقدم الحميات النزفية
المعروفة .. فالكل يعرفها منذ قرون .. لكنها كانت
دائماً موضعاً للخلط مع (الملاريا) ..

وفي عام ١٩٦٧ حدثت واقعة كئيبة حين تم
استيراد عدد من القروء الخضراء من (أوغندا) إلى
(ماربورج) في (ألمانيا الغربية) وقتها ..

وسرعان ما ظهرت أعراض الحمى النزفية بين عمال
المختبرات في (ماربورج) وحدثت وفيات عديدة ،
لهذا أطلقوا على الفيروس اسم (فيروس ماربورج) .

(*) كل المعلومات هنا حقيقية ..

وفي عام ١٩٦٩ كانت ممرضة بإحدى الإرساليات
في (لاسا) شمالي (نيجيريا) تنتزه في الحديقة ..
وكان خطؤها الوحيد أنها فعلت ما فعله أية أنثى
أخرى في حديقة : اقتطفت زهرة .. فجرحتها شوكتها ..
وكانت هذه فاتحة خير لواحد من ألعن الفيروسات
النزفية التي عرفها التاريخ .. فيروس (لاسا) ..
فقد أصابها الحمى وتقرح حلقها ثم توفيت في
مستشفى (بنجهام) التذكاري في السودان ..
بعد هذا بأيام أصيبت صديقتها (لورا واين) التي
كانت تقوم بتمريرها ، وسرعان ما لحقت بزميلتها
بعد عشرة أيام من مرض الأولى ..
وبدأت الوفيات تزداد .. ولم يتم نجاة الممرضة
(ليلي بنيو) إلا حين تم نقلها إلى الولايات المتحدة ،
وإدخالها العناية المركزة في مستشفى (كولومبيا) ..
كان المرض مروعا إلى حد أن كل من تعامل معه
أصيب بالعدوى .. وتوفي عاملان في جامعة (ييل)
حتى إن الجامعة منعت أي بحوث على فيروس (لاسا)
بعد ذلك ..

وبدأت حالات غامضة تظهر في (أوروبا) ..

لكن أسوأ الحميات النزفية طرا كان ينتظر دوره
ليظهر عام ١٩٧٦ .. وذلك في (زائير) و (السودان) ..
وكان يحمل اسم (إيبولا) الذي ينتمي لنفس أسرة
الفيروسات الخيوطية التي قدمت لنا فيروس
(ماربورج) من قبل ..

واختتم عقد الحميات النزفية بحمى الوادي
المتصدع في (مصر) .. حيث أصيب به مائتا ألف
مريض عام ١٩٧٧ .. وقضى على المنات بسبب
النزف أو التهاب المخ .. ومن عاشوا كفت أبصارهم
للأبد ..

لكن (إيبولا) و (لاسا) و (ماربورج) ما زالت
في (إفريقيا) تنتظر .. وكلنا نعرف أن حمى الوادي
المتصدع عادت إلى (مصر) في التسعينات لتحدث
وباء رهيبا ..

وتتعامل السلطات الإفريقية عامة مع محاولات
الغرب للتدخل في موضوع الحميات النزفية بحساسية
شديدة .. ولقد أطلق اسم فيروس (إيبولا) نسبة
للنهر الموجود بين (السودان) و (زائير) ، لأن
الحكومتين رفضتا في غضب أن ينسب الفيروس إلى

قرية (ماريدى) السودانية أو (يامبوكو) الزائيرية ،
وهكذا اضطرت الـ (CDC) لإيجاد حل وسط ..

أما (نيجيريا) فاتهمت (بريطانيا) باختلاق فيروس
(لاسا) ، لتقضى على مهرجان الثقافة السوداء الذى
عقد فى (لاجوس) عام ١٩٧٧

إذا أضفنا إلى هذا المعتقدات الدينية الوثنية ،
وصعوبة المواصلات ، وفقير الإمكانيات ، وعدم تعاون
الأهالى ؛ لأدركنا حجم مشكلة الحميات النزفية وصعوبة
استئصالها من (إفريقيا) ..

والحقيقة الأخيرة التى لا ننساها هى أن عدداً محدوداً
من الحميات النزفية ليس له لقاح أو علاج معروف ..
وأن أكثرها قاتل ..

★ ★ ★

وفى وحدة (سافارى) كان لقائنا الأول مع الحميات
النزفية ..

كانت سيارة الإسعاف تطلق سرينتها المولولة
النائحة ، وهى تشق طريقها وقت الغروب عبر أحد
الطرق القليلة الممهدة التى تقود إلى بناية (سافارى) ..
وكنت أنا مكثفاً باستقبال الطوارئ فى هذه الليلة
السوداء .. وقد اعتاد قلبى أن يسقط فى قدمى كلما

سمع صوت هذه السرينة .. ثم صوت النقالة يتم
فردها على الأرض .. كليك كلاك .. ثم صوت
العجلات على الأسفلت .. كررررررراك !

بعدها لا بد أن أرى مشهداً شنيعاً ، ويكون على أن
أواجهه وحدى فلا أصرخ ولا أفر ..

ترى ما هى المفاجأة التى يحملها لنا صندوق
المفاجآت ذو العجلات هذه الليلة ؟

كان هناك رجل أسود عارى الجذع يرقد على
النقالة ، وجواره امرأة تولى وتخمش خديها ..
وطلبت منهم أن يضعوه على سرير الفحص فى غرفة
الطوارئ ، رحت أتأمل جسده ..

كان فى الخمسين من عمره ، بديناً مترهلاً ، فقيراً
كالهنود .. لكنه غير مجروح .. وهذا يريحنى .. فأنا
رجل مسالم لا يحب رؤية هذه الإهانات التى تلحق
بالجسد البشرى الذى كرمه الله ..

لكنه كان ينزف ! كل فتحات جسده تنزف ببطء لكن
بثقة ..

ناديت الممرض المحلى (بودرجا) وهو لا يعمل

أى شيء على الإطلاق سوى أن يترجم اللهجات
المحلية لى ..

- « أسأله عما يشعر به .. »

هز رأسه فى ذكاء ، ثم أطلق سيلاً من الكلمات
بلغته (البانتويد) - وهى لغة تجمع بين لغة (البانتو)
واللهجة السودانية - على رأس الرجل ..

فقال الرجل بصوت مبحوح كلمة ما ، ثم صمت ..

قال (بودرجا) فى انتصار :

- « يقول إنه مريض ! »

- « هذا واضح يا أحمق ولا يحتاج إلى خبير حاسبات

ألية .. أريد معرفة أعراضه .. أعراضه ! »

عاد يطلق سيل كلماته .. ثم قال لى :

- « كل عظامه تؤلمه .. حلقه جاف .. يبول ويتبرز

دمًا .. »

طلبت من الممرضة الفلبينية (ساروار) أن تحقنه

بالدكستروز وأن تأخذ عينة من دمه لتبحث عن

فصيلة متوافقة ..

كان فى صدمة نهائية .. ورجحت أنه لن يعيش

طويلاً .. لكنى رحمت أحاول إنعاشه .. وذهنى يرتب

الاحتمالات ..



ناديت الممرض الخلى (بودرجا) وهو لا يعمل أى شيء على الإطلاق
سوى أن يترجم اللهجات المحلية لى ..

حمى وألم عظام ونزف .. أترأه التيفوس ؟ أم هو مرض (فيل) الناتج عن المشى فى مياه مانت الفئران بها ؟ أم هو تجلط وعانى منتشر لسبب لا يعلمه إلا الله .. أم هو سم ؟ إن تلك السموم الإفريقية التى يركبها السحرة تفعل أى شىء فى أى مكان فى أى وقت ..

الحق أننى عاجز عن اتخاذ قرار .. خاصة وأن حاجز اللغة والثقافة يقف حائلاً بينى وبين معرفة أى شىء عما يحدث ..

نزف وحمى وألم عظام .. ثلاثية تذكرنى بحمى (الدنج) النزفية .. لكن لا (دنج) فى (إفريقيا) كما أنه لا حمى صفراء فى (آسيا) .. هذه قاعدة يصعب خرقها ..

كان على اتخاذ قرار .. والقرار هو نقل المريض إلى معزل الحميات حتى يتبين الأمر .. واستدعاء البروفسور الخبيث (آرثر شيلبي) كى يبدى رأيه فى كل هذا .. من المفيد دائماً - حين تكون فى بلد غريب - أن تلقى بالمسئولية عن كاهلك فى أسرع وقت ، لتقع على كاهل من هو أكبر سناً أو علماً ..

جاء الرجل بعد ربع ساعة ، فهو يقيم قرب الوحدة فى فيلا فاخرة مكيفة ، ولديه سيارة من أحدث طراز .. كان يدخن سيجاراً كعادته ، وقد تهدلت خصلات الشعر الأشيب على جبينه ، وقد ارتدى قميصاً حريرياً فتح صدره ليبرز مزيداً من الشعر الأشيب .. وابتسم بثقة وهو يفحص المريض ..

انهال على رأسى بسيل من الأسئلة عن النتائج العملية .. سرعة التجلط .. سرعة النزف .. إلخ ، وكانت بعضها متوافرة وبعضها لم يصر متاحاً بعد .. وكنا قد بدأنا عملية نقل الدم للمريض ، لكنه كان يفقده بسرعة غير عادية من فمه وأنفه ، حتى إن الممرضة أصابها الهلع ..

وسألنى البروفسور (آرثر) :

- « هل المريض يتكلم ؟ »

- « كان له لسان منذ نصف ساعة .. لكنه ينزلق

سريعاً إلى الهاوية المظلمة .. »

- « ألم يقل شيئاً عن لدغ أفاع ؟ »

تباً ! إتك لعبرى ! لم يخطر لى هذا ولن يخطر

ولو بعد مائة عام .. كيف لم أفكر فى هذا ؟

الأفاعى الإفريقية قد تسبب تجلطا وعائيا منتشرا
بسمها .. وعندها يتخثر الدم فى كل الأوعية الدموية
الصغيرة ، ويستهلك الجسم البشرى كل عوامل التجلط
فى تجلط لا داعى له .. من ثم يبدأ الدم ينزف من كل
موضع فى الجسد دون سبب ..

هذه هى العبقرية .. أن ترى الجانب الآخر من
القمر بينما الكل ينظرون إلى جانبه المضىء الواضح ..
وقد رأى (شلبى) ذلك الجانب الآخر ..
قلت بانبهار :

- « نعم .. لم يقل شيئا عن أفاع .. تكلم عن حمى
والم عظام فحسب .. »

كانت عينه الخبيرة تتفحص جسد المريض .. ثم
توقفت عند بقعة محمرة ملتهبة فى صدره وقد اسود
الجلد فوقها ..

قال لى فى برود والسيجار لا يفارق شفتيه :

- « أخقا لم تلحظ هذه ؟ »

احمرت أذناى .. لا بد أنهما احمرتا وأنا أقول :

- « إنه .. إنه خراج عادى .. »

أشار إلى نقطتين واضحتين متلاصقتين وقال :

- « ها هى ذى آثار نابى الأفعى ! »

قلت وأنا أشعر بتضاؤل غير مسبوق :

- « لكنه .. لكنه لم يذكرها بحرف .. إن من تلذغه

أفعى لا يخفى الخبر فى حياء عنم يحيطون به .. أو
يتركهم يخمنون .. »

- « الطبيب الجيد هو ملاحظ جيد .. » - ونفت الدخان

فى وجهى - « .. إن (البانتو) لا يحبون الكلام عن
الأفاعى لأنهم يتطرون منها .. »

كدت أحنى إجلالا له .. فهو بحق أستاذ فى طب

المناطق الحارة .. يعرف الأمراض ويعرف المرضى ..
ولديه جواب جاهز فى كل ثانية .. وهكذا تغيرت

سياستنا فى إتقاد الرجل إلى اتجاه آخر ..

أحضرت الممرضة عشر أمبولات من المصل المضاد
لسم الثعابين ، وذوبتها فى زجاجة دكستروز ، وشرعت

تنقط المحلول فى عروق الرجل ..

واستدار البروفسور ليرحل موزعا ابتساماته من

حولته ، كما يوزع بابا (الفاتيكان) بركاته ..

- « هل من شىء آخر تريدونه ؟ »

قلت وأنا أتبعه فى احترام بالغ :

- « لا .. ونحن نأسف لإزعاجك .. لقد بدا لي الأمر غامضاً و ... »

هنا سمعت الممرضة تصرخ :

- « د. (علاء) ! ثمة شيء ما خطأ ! »

استدريت لأرى ما تعنيه .. فصاحت في هستيريا :

- « لقد مات ! »

تركزت الأستاذ الأمريكى وهرعت نحو فراش الرجل ،
أتحسس نبضه .. أقيس له الضغط .. لا شيء ..
رحت أجرب عليه كل وسائل إعادة الحياة التى
سمعنا ولم نسمع عنها .. ووجهت بعض لكلمات قوية
إلى صدره دون جدوى ..

رفعت عيني نحو البروفسور طالباً العون ، لكنه
كان واقفاً ويداه فى خاصرته يرمق المشهد فى برود ،
وقد رسم تعبيراً صناعياً من الأسى على سحنته ..
وسمعتة يقول :

- « متأخر جداً .. لقد جاءنا متأخراً جداً .. »

ابتعدوا .. بروم ! الصدمة الكهربائية تمر فى جسد
المريض فينتفض لكن دون نتيجة ملحوظة .. ابتعدوا ..
بروم !

- « لقد فقدناه يا دكتور .. »

قالتها الممرضة فى يأس .. وشعرت أنا بصدقها ..
تباً ! لشدة ما أكره هذا المشهد اللعين .. لكنه يحدث
دائماً ولا مفر منه ..

فى النهاية نهضت لاهثاً منهاكاً ..

ومشيت فى تودة نحو الأستاذ .. رمقتى فى شفقة
مصطنعة وقال :

- « أنت محارب عنيد .. لكنك لا تقبل الهزيمة .. »
لم أرد لأننى كنت مغتاضاً كدأبى كلما رأيت الموت ..
تقول الأسطورة المجرية إن الموت تبنى طفلاً ..
وعلمه حتى صار طبيباً نابهاً .. ثم قال له إن سر
المهنة يكمن فى موضع الموت من فراش المريض ..
إذا وقف عند رأسه فالمريض ميت لا محالة ،
ولا داعى لإضاعة الوقت معه .. ولن يرى هذا المشهد
أحد سوى الطبيب ..

وجاء يوم مرضت فيه ابنة الملك فاستدعوا طبيبينا
لعلاجها .. فما إن دخل غرفتها حتى وجد الموت يتجه
ليقف عند رأس الفراش .. وكانت الأميرة حسناء لم
يحتمل الطبيب فكرة موتها ، لهذا أمر الخدم بتدوير
الفراش بسرعة لتصير رأسه عند قدميه والعكس ..

٦ - الوباء يتحرك فى الظلام ..

كانت الفوضى فى كل صوب .. والدماء تغطى كل
شئ ..



أصدر جهاز (الفاكس) أزيزه الموسيقى المؤلف ..
ثم اتسابت ثلاث لفافات ورقية من الجهاز ، سرعان
ما تكورت حول نفسها وسقطت على (الموكيت) فى
مكتب المدير ..

لا بد أن هذا حدث منذ ثلاثة أيام .. وبالتأكيد حدث
فى ظلام الليل .. لأن أحدا لم ير هذه الأوراق وقتها ،
وما كان ليراها بعد ذلك ..

العاملة الجديدة (كولا) رأتها بالتأكيد ، وكانت من
قبيلة لا ترى هذه الأشياء كثيراً لهذا بدت عليها
الدهشة .. إن أحدا لم يخبرها بكنه هذا الجهاز .. ولم
يقبل لها أحد ألا تتخلص من تلك اللفافات التى تسقط
على الأرض ليلاً ..

حاول الموت إعادة الكرة .. لكن الخدم دوروا
الفراش ثانية .. وهكذا مرّ الليل فى عملية تدوير الفراش
مئات المرات ، لمنع الموت من الوقوف عند رأسه ..
وفى النهاية ينس الموت وانصرف غاضباً

لكم أتمنى لو استطعت تدوير أسرة كل المرضى فى
كل مكان .. حتى لو زودتها بمحرك كالذى يضعونه
فى غرف النوم فى معارض الموبيليا ..

قال لى البروفسور (شلبى) :

- « أرجو أن ترسل جثته للتشريح .. فنحن سنعرف
أكثر ونزداد حكمة ..

ثم تاهب للانصراف ، ولم ينس أن يقول :

- « اغسل وجهك واستحم .. يا للفوضى ! تبدو لى
كأنك قد استحممت من فورك فى بركة دماء ! »



لا بد أنها قالت شيئاً ما عن (الغرائب التي يراها
المرء ليل نهار) ثم حملت الأوراق في المجرفة ..
وأغلقت مكتب المدير بالمفتاح وانصرفت ..

★ ★ ★

كانت اللقافات تحمل جميعاً عبارة WHO في الركن
الأيسر العلوي .. وبدا هذا مضحكاً بالنسبة لـ (دايبلا)
عامل النظافة الذي كان يفرغ القمامة (*) ..
كان يعرف بعض الإنجليزية لهذا لم يفهم سرّ بدء
المراسلات بلفظة (من ؟) .. ووجد في منتصف الصفحة
العلوي بخط غليظ واضح كلمة Absolute priority ..
فلم يفهم معناها ..

راح يحرك شفتيه محاولاً نطق الكلمة :

- « أبسولوت بري .. بريوريتي .. أبسولوت
برايورتي .. »

ثم غمغم وهو يفرغ سلة القمامة في الصفيحة الكبرى :

- « ولكن ما معنى هذا بحق الأرواح ؟ »

★ ★ ★

(*) التشابه بين WHO أو (من ؟) ، والحروف الأولى من
اسم منظمة الصحة العالمية ..

أولوية مطلقة !

أولوية مطلقة لأبناء الوباء الذي بدأ يظهر
شمال (الكامبيرون) .. أو - بعبارة أدق - بينها وبين
(تشاد) ..

وكانت برقيات منظمة الصحة العالمية والـ CDC
تنهمر على وزارات الصحة في عدة بلدان إفريقية ..
لكن إهمالاً بسيطاً أدى إلى أن تكون وحدة (سافاري)
آخر من يعلم ..

إهمال بسيط لكنه جعلنا نتصرف دون حذر ..
ووجدنا حلولاً سهلة للأغاز شديدة الغموض وقنعنا
بها ..

إن وزارة الصحة في (الكامبيرون) لم تخطر
(سافاري) بشيء .. وهذا ديدن السلطات الإفريقية
التي تتحفظ تجاه أبناء الأوبئة ، وتشعر دوماً أنها
محاولة أجنبية لإظهار عدم الاستقرار الداخلي ..

وفي (سافاري) لم نكن قد رأينا سوى المريض
الذي كلمتكم عنه في الصفحات الماضية .. لهذا لم
يبد لنا الأمر كظاهرة ..

★ ★ ★

كنت قد انتهيت من نوبتجيتى ، فقررت - على
سبيل المرح - أن أهبط إلى المشرحة لأرى ما انتهى
إليه فحص مريضنا الإفريقى إياه ..

كنت أمقت (شلبى) لكن احترامى لعلمه لا ينتهى ..
وقد أردت أن أرى ليظمنن قلبى لا أكثر ، وأزداد
احتراماً على احترام ..

إن المشرحة فى وحدة (سافارى) جديرة بلقبها ..
فهى تقع فى الطابق الأرضى تقود إليها مجموعة
ممرات كنيية خافتة الإضاءة ، تفوح برائحة
المظهرات ..

ولم أكن أحب أن أزور هذا المكان كثيراً .. من
ناحية لأنه يذكرنى بفشل الطب فى أداء الغرض منه ..
ومن ناحية أخرى لأنى كنت ألقى الأخ (ديفيد جيديون)
وهو يهودى أكثر من الحاخامات أنفسهم .. ولم يكن
بيننا أى استلطاف أو قصص حب ملتبهة ..

لكنه - والشهادة لله - كان بارعاً فى علمه ككل من
يعمل فى (سافارى) .. ومن الممكن أن أفيد منه ..
لهذا كنت أتعامل معه بمنطق من يتعامل مع الأفعى
ليستخلص الترياق من سمها ..

كان جالساً هناك فى صالة التشريح يدون بعض
ملاحظات فى (بلوك نوت) صغير ..

كان ملتحمياً وله أنف معقوف من الأنوف إياها ،
وله عينان شديدتا الزرقة يداريهما - منعاً للحسد -
وراء عوينات بلا إطار ..

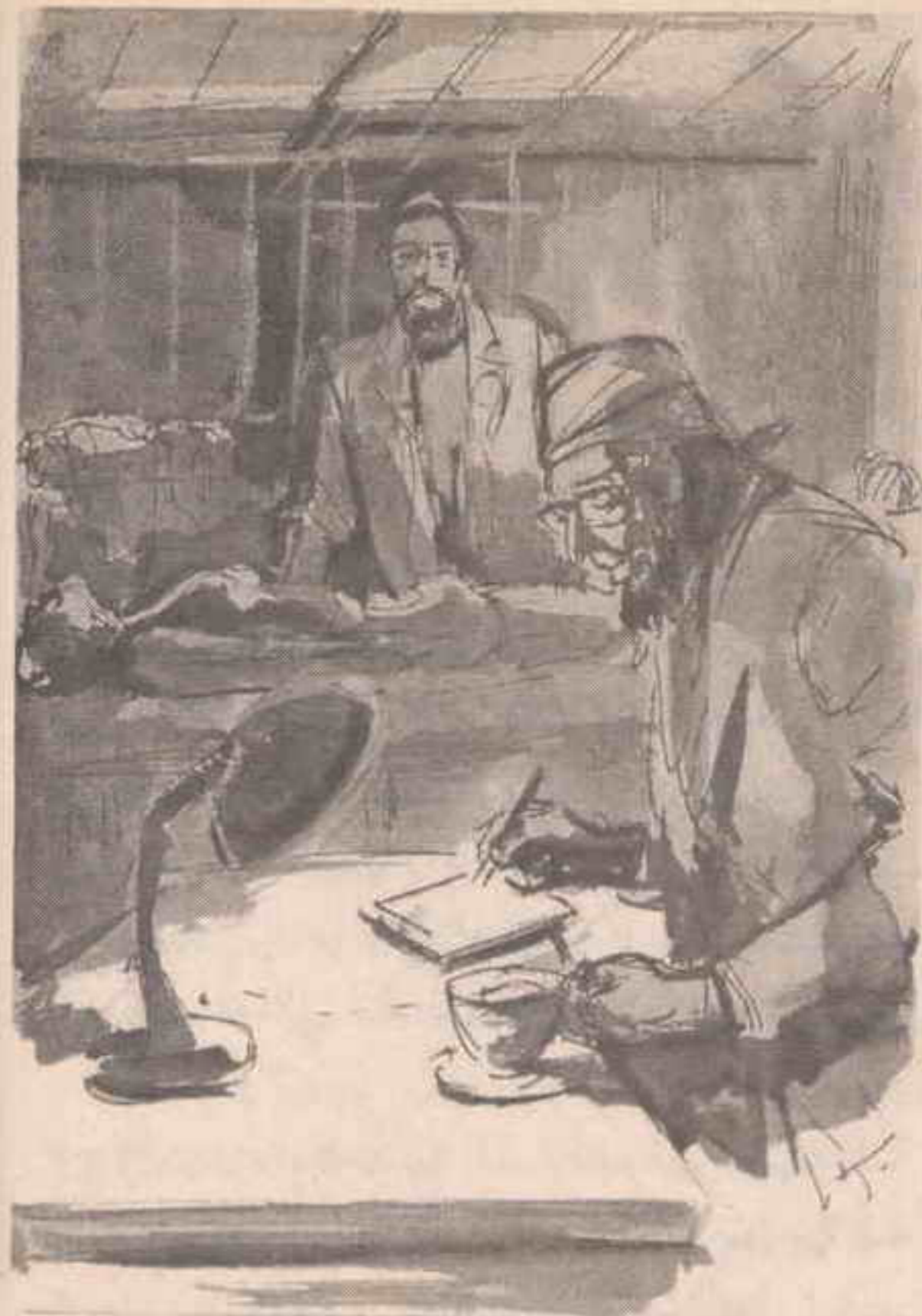
وكان يرشف القهوة بيده اليسرى العارياة من
القفازات ، بينما يده اليمنى فى قفازها تخط ملاحظاته ..
وعلى منضدة التشريح وجدت المريض أو ما تبقى
منه .. فلم تعد ثمة أحشاء داخله .. وكان البنكرياس
فى دلو على الأرض ، بينما الكبد والطحال على كفة
ميزان صغير كأنما عملية بيع توشك أن تتم ..

- « مساء الخير يا د. (جيديون) .. »
قلتها له فى أدب .. فرفع وجهه يرمقتى بعينيه من
فوق إطار المنظار ، ثم قال بصوته الجهورى :
- « مساء ! »

وعاد يدون ملاحظاته غير راغب فى إظهار أية
مودة تجاه ذلك الذى يحاول أن يتعلم ؛ متناسياً أنه
عربى .. بل ومصرى .. بل ومسلم ! يا للهول ! كيف
أجرؤ على هذا !؟

سألته محاولاً ابتلاع عدائيتي :
- « ما هو رأيك في هذه الحالة ؟ »
رشف القهوة .. وعاد يدون خواطره .. وغمغم :
- « لم أنته بعد .. لقد أخذت بعض عينات الأنسجة
للفحص الباثولوجي .. ولسوف تكون عندي فكرة
جيدة غداً .. »

- « هل يوحى لك بلدغ أفعى ؟ »
- « من قال هذا الهراء ؟ »
قالها دون أن ينظر لى .. فقلت بسرعة :
- « بروفسور (شلبي) .. »
- « هراء .. لا يوجد سم أفعى بهذه القوة .. لقد
وجدت نزفاً في كل الأعضاء الداخلية وتحت الجلد .. وإبنى
لراغب في إجراء تحليل للبحث عن الفيروسات .. »
رباه ! احتمال آخر لم يخطر لى قط ..
سألته في حيرة وأنا أرمق الجثة :
- « فيروسات ؟ هل تعنى الفيروسات النزفية ؟ »
- « طبعاً .. لقد رأيت هذا المنظر فقط في ضحايا
فيروس (إيبولا) وفيروس (الكونغو - القرم) ..
وصدقتى لا يوجد شيء آخر يمكن أن يسبب بركة الدم
هذه .. »



وعاد يدون ملاحظاته غير راغب في إظهار أية مودة تجاه ذلك
الذى يحاول أن يتعلم ..

- « ولكن .. بروفيسور (شلبي) .. أستاذ طب
المناطق الحارة... »

ابتسم في تهكم والتمعت أسنانه البيضاء الناصعة ،
وقال :

- « حتى (هومير) يحنى رأسه .. ألم تسمع بهذا
المثل ؟ »

إنه لا يعلم .. هذا المثل هو ما معنى من الموت
بعد موضوع (عفاف) إياه .. قلت له في صدق :

- « بلى .. سمعت .. »

- « إن الكوليرا - على سبيل المثال - عسيرة
التشخيص جداً على أول طبيب يراها .. وكذلك
الطاعون .. في الغالب ستشخص الأولى كمجرد حالة
إسهال ، ويشخص الثاني كخراج في أعلى الفخذ ..
فقط حين ينتشر المرض ويتخذ صورة وباء يغدو
التشخيص واضحاً لكل طفل .. والطبيب الذي يرى
أول حالة حمى نزفية لا يميزها غالباً .. سيظن أنها
أى شيء سوى ما هي عليه .. »

- « ولكن منظمة الصحة العالمية لم .. »

وضع قذح القهوة على المنضدة .. وقال في سأم :

- « إما أن تكون هذه هي الحالة الأولى حقاً ..
وإما أن يكون هناك خلل في النظام الوقائي هاهنا ..
وهذا شيء معتاد .. »

- « ولكن .. معنى هذا أن الخطر داهم علينا .. »

- « طبعاً .. »

- « لم نتخذ أية احتياطات في وقاية أنفسنا أو عزل
المريض أو التخلص من إفرازاته .. أو .. »

ونظرت إلى قذح القهوة الذي فرغ منه .. وأردفت :

- « أو عزل عملية التشريح .. »

- « لا بد من أن يخاطر أحد .. »

ثم أردف وهو يتعاب :

- « سأنتهي تقريرى وأعطى ملاحظاتي .. فلو كان

هذا هو (إيبولا) أو (لاسا) ، يمكننا جميعاً أن

نتبادل عبارات الوداع .. »

وعاد يكتب معلناً تجاهله التام لى ..

وغادرت المشرحة شاعراً بدوار تام يبلبل فكرى ..

★ ★ ★

تمتاز وحدة (سافارى) بمكتبة بديعة من نوعها

تحتوى الأقدم والأحدث من المراجع الطبية والدوريات ..

وقد قصدت إلى هناك أبحث عن مرجع مناسب يتحدث
عن الحميات النزفية ..

ويبدو أنني قضيت ساعة أو أكثر معزولاً عن العالم ،
غارقاً في عالم هذه الأوبئة المريعة ..

إن نزف الدم لشئء مخيف حين يكون هناك جرح ..
لكن الأكثر إفزاعاً هو نزف الدم غير المصحوب
بجرح !

تشارك الحميات النزفية جميعاً في أن لها فترة
حضانة متقاربة .. وكلها تبدأ بفترة من الأعراض
غير المميزة التي يحسبها الجميع إنفلونزا عادية ..
حمى .. صداع .. ألم في العضلات .. احتقان في
العينين ..

ثم يبدأ النزف في اليوم الرابع .. ويكون عنيفاً
شرساً يؤدي إلى وفاة المريض بسرعة غير مسبوقة ..
وتنتقل الحميات النزفية عن طريق الحشرات
كالبعوض والبق .. أو عن طريق بول القوارض
والوظاويط .. أو عن طريق التعامل مع المرضى
واستنشاق الهواء الملوث أو الغبار الملوث ..

وقرأت عن تجارب (والتر ريد) الشجاعة مع

الحمى الصفراء في أمريكا الجنوبية ، ولم أصدق
ما قرأت ..

لقد كانت الحمى الصفراء تجتاح البلاد ، ولم يكن
من الممكن النجاة منها .. إن هي إلا أيام ويصاب
المريض بالصفراء ويقىء الدم وعصارة الكبد
وتتوقف كليته عن العمل .. ويموت حتماً ..

ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن فيروس المرض
ولا كيفية انتقاله .. فقط كان الأهالي يتحدثون عن
(بعوضة ما) ..

قام (والتر ريد) بانتخاب مجموعتين من الجنود
الأمريكان الأصحاء وجعل المجموعة الأولى تقضى
أسبوعاً في كوخ نظيف صحى لكن نوافذه مفتوحة
تسمح بدخول البعوض ..

أما المجموعة البائسة الثانية فاختار لها أن تقضى
أسبوعاً في ألغن مكان يمكن التفكير فيه .. بنى لهم
كوخاً قذراً .. بعثر فيه ذات الغبار الذي كان في عنابر
مرضى الحمى الصفراء .. جعلهم ينامون على
ملاءات ملوثة بقىء ودماء من ماتوا بالحمى
الصفراء .. حتى الستائر كانت ملوثة .. وأدوات المائدة

هي ذات الأدوات التي كان الموتى يستعملونها وقت الاحتضار ! لكنه منحهم كوخا معزولا عن البعوض .. (آسف للآنسات على كلامي .. لكن هذا هو أرق وصف أحكى به تلك التجربة غير العادية) .. وبعد أسبوع فتح (ريد) الكوخين .. فماذا وجد ؟ (مجموعة الكوخ النظيف والبعوض) مرض ثلاثة منها بالحمى الصفراء .. ومات اثنان منهم .. (مجموعة الكوخ القذر بلا بعوض) ظلت سليمة تماما ..

النتيجة مقتعة .. البعوض ينقل الحمى الصفراء .. لكن (ريد) لم يقتنع بهذه النتائج .. من أدراه أن أفراد (مجموعة الكوخ القذر - بلا بعوض) لم يكونوا محصنين ضد المرض لأسباب طبيعية ؟ وهكذا جعل البعوض يلدغهم ليتأكد .. وسره أن اثنين منهم قد أصابهما المرض على الفور وماتا ! ولم يهدأ بالأ حتى لدغ نفسه بالبعوض ليزداد يقينا .. وسره أكثر أنه أصيب بالحمى الصفراء ونجا بأعجوبة .. وهكذا أعلن للعالم أن الحمى الصفراء تنتقل بالبعوض .. وأن إبادة البعوض هي الخطوة الأهم في إزالة المرض ..

وقد كان .. واتحسر الوباء من أمريكا الجنوبية ..
شيطان العلم !

★ ★ ★

شممت العطر الرقيق يفسح لنفسه مكانا في القاعة قبل مجيئها ، كما يحدث في إعلان التلفزيون عن مزيل العرق الذي لن أذكر اسمه .. رفعت رأسي فرأيت (برنادت) بمعطفها الأبيض كالثلج تقف أمام رفوف الكتب ، تبحث عن شيء ما .. والتقت عينانا فكورت أنفها مداعبة بالطريقة التي نسميها في مصر (تشنيكة) ، وهي أسلوبها الرسمي في التحية :

- « هاى .. »

- « هاى .. »

وللمرة الثانية شعرت بتلك الدبابيس في حلقى .. يبدو أنني أصبت ببرد خفيف ..

رأيتها تجذب مرجعا في علم الأطفال ، فتفتحه وهي واقفة .. وراحت تهمهم بسرعة مع السطور شأن من يريد معرفة معلومة سريعة .. ثم هتفت كأنما تكلم نفسها :

٧- إنه هنا !

لقد تتأهب في مكان ما من أحرش (إفريقيا) ، ثم بدأ يتحرك في ببطء لكنه في ثقة ..
كان يعرف ما ينبغي عمله ..

★ ★ ★

في الصباح قطعت علينا أعمالنا إشارة استدعاء عاجلة من مكتب المدير .. ولم نكن نتعامل مع أجهزة في نطاق ثيابنا ، بل مع صفارة مدوية من مكبرات الصوت يعقبها صوت رخيخ أنثوى يقول بالفرنسية :
- « على الأطباء أن يتواجدوا في قاعة المحاضرات خلال عشر دقائق من الآن .. »

وعرفت على الفور أن الاستدعاء خاص بحالات الحمى النزفية التي بلغ عددها ثلاثاً حتى الصباح ..
وهرعنا إلى الطابق الثاني وهو يقع في الضلع القصير من حرف (L) كما سبق أن قلت لكم ..
وقاعة المحاضرات أو الـ (تيوتور) فاخرة جداً ،

- « حقاً .. لا (دنج) في إفريقيا .. »

قلت وأنا أشعر بأنني عليح بالموضوع :

- « بل هناك (دنج) في إفريقيا .. لكن حمى

(الدنج) النزفية غير موجودة فيها .. ما سر اهتمامك بهذا ؟ »

- « إنها تلك الطفلة الصغيرة .. رباه ! لماذا ينزف

الأطفال بهذه الغزارة ؟ »

ونظرت لها في حيرة .. وتصلبت عضلات فكي ..

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H

www.dvd4arab.com

مبطنة بمادة عازلة للصوت ، وتتسع لثلاثمائة فرد ..
وبها مقاعد وثيرة وأجهزة ترجمة وثلاث شاشات
للعرض .. باختصار تذكرني بقاعات المؤتمرات التي
نراها في نشرات الأخبار في الأمم المتحدة ..

ولم نكن نستعملها إلا وقت المصائب .. فهي أكبر
من أن يتم استخدامها للمحاضرات التثقيفية
الأسبوعية ، أو مناقشة الحالات العسيرة ..

بدأ الأطباء يجيئون من كل صوب وحذب ..

محادثات بالإنجليزية .. بالفرنسية .. بالإيطالية ..
باليابانية .. لكن الفرنسية هي اللغة الأولى المسيطرة
على المكان .. ويوسفنى أننى لا أجد من أحدثه
بالعربية سوى نفسى ..

ومن الممر هتفت (برنادت) فى حيوية :

- « هاى (علاء) ! هل المقعد بجوارك محجوز ؟ »
قلت وأنا أرفع حاجباتى من عليه :

- « بتاتا .. أو لنقل إننى حجزته لك .. »

وهنا أصارح القارئ بسر صغير أعرف أنه لن
يتسرب ..

أنا أهيم حبا ب (برنادت) .. ولماذا لا أخبرها ؟

لأننى أخشى أن أفقدها .. فهي تميل إلى لأننى الوحيد
الذى لم يخبرها كم هي فائنة .. ربما هي وجدت فى
صديقا تستريح إليه وسيزعجها - حتما - أن تعرف
أن صداقتها شىء لا يسرنى ..

إن المرأة الحسناء تجد عواطف الرجال الذين
لا تميل إليهم شيئا لزجا مزعجا كالذباب .. شيئا يحيل
حياتها جحيما ..

وأنا أحب (برنادت) لهذا لن أحيل حياتها جحيما ..
- « قيم شرودك ؟ »

- « أتساءل عن سبب هذا الاستدعاء .. »

ورأينا البروفسور (بارتليه) يتدحرج ككرة الشحم
نحو المنصة .. والعرق يسيل على جبينه .. وكان
(جيديون) يتبعه بمسافة معقولة ..

وقف يلهث بعض الوقت .. ثم قرب شفتيه من
الميكروفون وقال بالفرنسية :

- « كيف حالكم هناك ؟ »

لم يضحك أحد .. ولم يتوقف هو عند افتتاحيته
المرحة ، قال على الفور وهو يتأمل بعض الأوراق
فى يده :

- « إننا نواجه مشكلة غير مسبوقه أيها السيدات والسادة .. لقد قرأت بعض تقارير (الباثولوجى) التى أعدها لنا البروفسور (جيدون) ، مع نتائج معمل الفيروسات الذى أشرف عليه .. ثم طلبت من بروفسور (هانز شيفرن) أن يجرى بعض الاختبارات المصلية .. إن وحدة (سافارى) تواجه أول صدام لها مع الفيروسات النزفية .. وأعتقد أن تلوثاً عاماً قد حدث هاهنا .. »

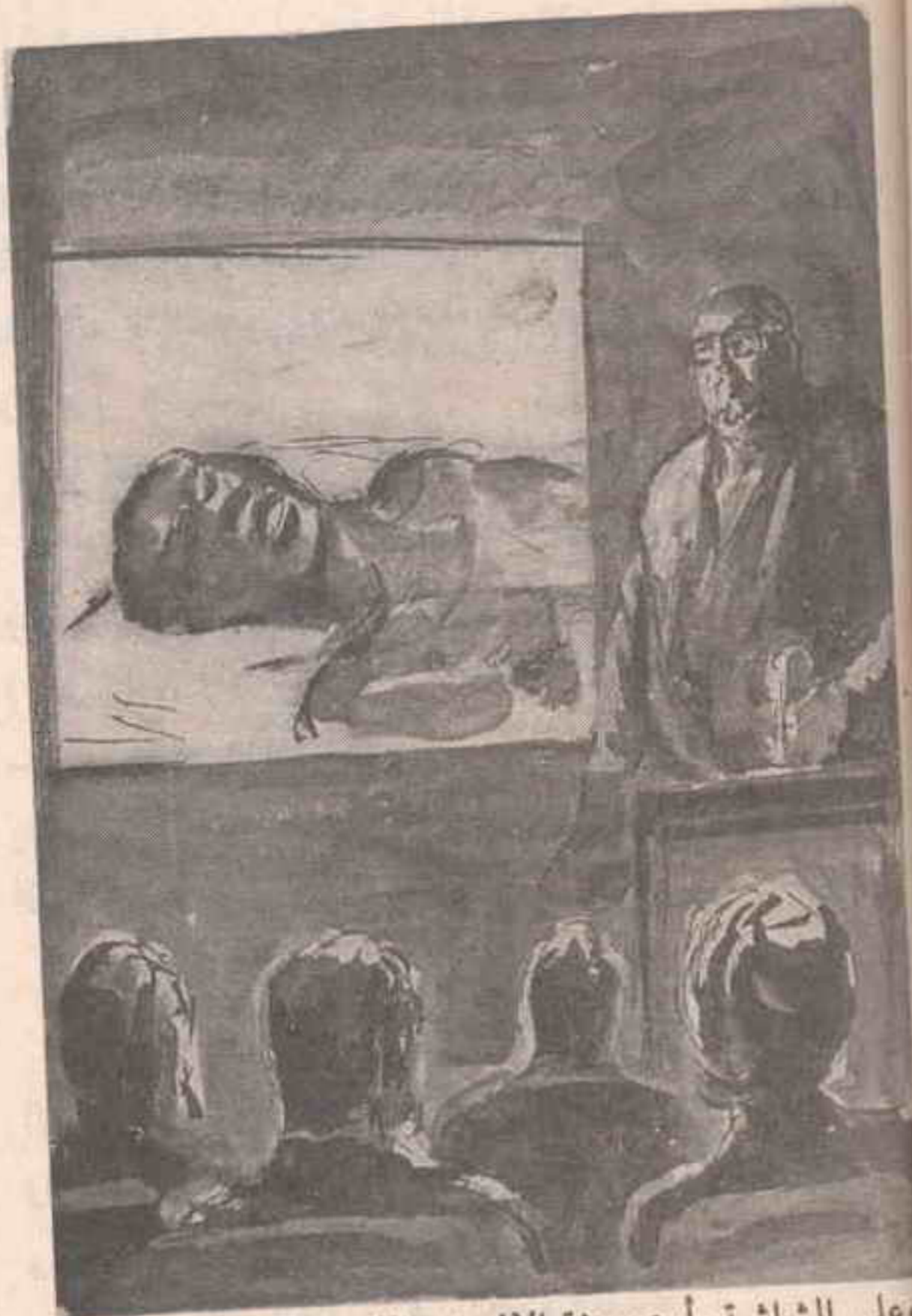
ثم أشار إلى المقصورة الموجودة خلفنا فساد الظلام ..

بعدها بدأ هدير آلة العرض السينمائي ..

وعلى الشاشة رأيت جثة الإفريقى الذى مات معى منذ يوم أو أكثر .. لقد تم التقاط الصور فى المشرحة ..

وسمعت صوت (جيدون) الجمهورى يقول بفرنسية سينة :

- « هذا الرجل من قبائل (البانتو) قد جاء مستشفىنا منذ ست وثلاثين ساعة .. الأعراض حمى وآلم عظام ونزف عام .. »



وعلى الشاشة رأيت جثة الإفريقى الذى مات معى منذ يوم أو أكثر .. لقد تم التقاط الصور فى المشرحة ..

- « هل د. (مايرز) هاهنا ؟ »

- « نعم .. »

- « نحن بحاجة إلى خبراتك في الطب الوقائي .. نريد أولاً معرفة مدى تلوث وحدة (سافارى) . ثانياً نريد البدء في دراسة وبائية المرض .. »
نهض د. (مايرز) الألمانى من مقعده .. وسأل الرئيس :

- « لماذا لم تخطرنا منظمة الصحة العالمية أو وزارة الصحة هاهنا ؟ »
- « لأن التنسيق معدوم ، وعلمنا أن نتصرف وحدنا .. »

- « هل توجد تقارير عن حالات مماثلة ؟ »
- « إن المشكلة أكبر مما نتصور .. ويبدو أن هناك ثلاثمائة حالة في شمال البلاد ! »
تصاعدت صفارات الدهشة .. وتوتر الجميع ..
- « كم حالة رأتها الوحدة ؟ »
- « ثلاث حالات هلكت جميعاً فى غضون عشر ساعات من دخولها الوحدة .. »
هتف (مايرز) غير مصدق :

تدهور فى سرعة النزف والتجلط ونسبة (الفيبرين) .. عدد الصفائح قليل جداً .. زيادة فى حجم الخلايا المحزومة .. صدمة عامة .. تم علاجه بشكل غير متخصص بناء على تشخيص مبدئى غير دقيق .. التشخيص بعد الوفاة هو : حمى فيروسية نزفية .. »

هنا التقط (بارتليه) خيط الكلام ليقول :
- « لقد تمكنا من استزراع الفيروس مبدئياً فى جنين الدجاج .. الدلائل الأولى تقول إنه فيروس (إيبولا) .. ولو كان هذا صحيحاً فإن كل فرد هنا معرض لخطر داهم .. »
وعلى الشاشة ظهر جسم شريـر بلورى الشكل ، أقرب إلى خيط له براعم عديدة ..
قال (بارتليه) :

- « هذه هى الصور الأولى للفيروس بالميكروسكوب الإلكتروني .. إنه حتماً ينتمى للفيروسات الخيوطية ، وله نفس الأجسام المضادة فى المصل لكننا غير واثقين بعد .. »

ثم أشار إلى الجلوس فى الظلام وتساءل :

- « مستحيل ! الـ (إيبولا) لا يتصرف بهذه
الشراسة .. ما رأى البروفسور (آرثر شيلبي) فى
هذا ؟ »

أضيت الأنوار .. فرحنا نضيق عيوننا عاجزين عن
فتحها .. ونظرت إلى المقاعد الأمامية فرأيت
(شيلبي) - بكسر الشين وتسكين اللام .. جالساً فى
(الأظلة) كعهدي به .. والسيجار فى يده .. ترى أى
حرج يشعر به بعد فشل تشخيصه العبقري ؟ لا بد أنه
يقول لنفسه :

« حتى (هومير) يحنى رأسه .. »

شعرت بتشفّ خبيث وانتظرت سماع رده ..

قال بالفرنسية اللعينة التى لا يجيد خيراً منها :

- « نعم .. الـ (إيبولا) أبطأ من هذا .. وكذا

(ماربورج) و (لاسا) .. »

سأله الرئيس من فوق المنصة :

- « يقولون إنك رأيت إحدى الحالات يا بروفسور .. »

قال فى وقار :

- « نعم .. إنه صديقنا المصرى الشاب قد طلب

رأى .. وكانت الحالة متدهورة جداً .. لكننى طلبت

منه ألا يبذل مزيداً من الجهد حتى لا يتعرض للعدوى ..
لقد كانت الحميات النزفية فى ذهنى دائماً .. »

يا للصفاقة ! هذا هو أسلوب (جوبلز) وزير
دعاية (هتلر) الشهير : اكذب كذبة كبيرة وبلا تردد ..
سيصدقها الناس جميعاً ولن يجروا أحد على الشك ..

من يصدقنى أنا الشاب الغرير لو قلت لهم إن
الأستاذ الأمريكى قد ارتكب خطأ فاحشاً ؟ ولو قلتها
وصدقونى لقالوا لى : « حتى (هومير) يحنى رأسه »
وحتى الأساتذة يخطنون أحياناً ..

نعم .. الأساتذة - كما أفهمهم - يخطنون لكنهم
لا يكذبون ..

هنا نهض (مايرز) وقال فى حسم :

- « سيدى الرئيس .. أرجو أن يسمح لى بعزل كل
من تعامل مع المرضى .. فهذه هى خطوتنا الأولى .. »
ثم أشار إلى البروفسور (شيلبي) باسمًا :

- « وأنت أولهم يا سيدى .. »

ابتسم (شيلبي) فى تواضع وقال :

- « العلم هو العلم يا سيدى .. وإبنى لأخضع له
فى رضا .. »

قال الرئيس في مكبر الصوت وهو يتأمل الأوراق :

- « حسن .. يمكننا أن نضم إلى القائمة أسماء د. (برنادت جونز) .. د. (علاء عبد العظيم) .. د. (إبراهيم ليفي) .. الممرضة (ساروار موستكا) .. الممرض (بودرجا) .. وسنرى من يستجد .. »
يا نهار أسود ! عزل ؟ ومع من ؟ مع (إبراهيم ليفي) ؟

إنني بالتأكيد أفضل قضاء الوقت مع عشرة وطاويط مصاصة دماء وثمان وفارين .. فهم - على الأقل - خصوم شرفاء ..

لكن قواتين (سافاري) صارمة كأية قواتين أخرى ..

علينا أن نخضع .. وأمرنا لله ..
هنا نهضت مسز (مارجريت أرشيبالد) المشرفة الإسكتلندية على التمريض .. وهي شمطاء صارمة كناظرات المدارس ، وقالت في لهجة مسرحية :

- « سيدى الرئيس .. إن (ساروار) تحتاج إلى معزل خاص بها .. »

- « وما هو السبب ؟ »

- « إن حالتها على غير ما يرام اليوم .. »

ثم هتفت في لهجة منتصرة :

- « إن حرارتها مرتفعة وحلقها ملتهب وعينيها حمراوان .. ويبدو أن أنفها ينزف أكثر من اللازم ! »

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

وبناء على تعليمات مدير الوحدة تمّ تعميم الأمر
(خطر حيوى من المستوى الرابع) .. والمستوى
الرابع هو اسم سعيد لم يُطلق إلا على أوبئة قليلة
شرسة فى فتكها وسرعة انتشارها .. وقد كان
الـ (إيبولا) و (ماربورج) من أهم الفيروسات التى
ظفرت بالمستوى الرابع ..

وبناء على هذا الأمر تمّ توزيع الثياب التى تشبه
ثياب رواد الفضاء على فريق العمل ، وتمّ عمل
تطهير لغرف المستشفى بالأشعة فوق البنفسجية ..
ومحلول الـ (جلوتارالدهايد) ..

أما نحن - بذور المرض - فتمّ نقلنا إلى المعزل ..
والمعزل لا يشبه غرفة الفنران فى شيء .. فهو
مكان فاخر معدّ بكافة سبل الراحة وبه قاعة طعام ،
وجهاز تلفزيون متصل بالأقمار الصناعية ، وتكييف ،
وكل لوازم التسلية .. وبه أربع غرف مؤثثة جيداً ..
كل شيء متاح إلا الحرية .. الحرية التى وعدونا
بمنحها لنا ذن أسبوعين من الفحوص والبحوث
المعملية ..

وكان تقسيم الحالات على الغرف سهلاً ..

٨ - فى المعزل ..

فى السابعة مساءً توفيت المريضة الفلبينية
(ساروار) ..
كان هناك كثير من النزف والهلاوس والصراخ ..
لكن الأمر انتهى سريعاً .. وطبقاً للشهود يمكن القول
إن المدة من بداية مرضها حتى وفاتها استغرقت
عشرين ساعة لا أكثر ..

★ ★ ★

- « مستحيل ! »
- « فترة الحضانة لم تتجاوز يومين .. »
- « وفترة المرض لم تتجاوز يوماً ! »
- « ليس هذا الـ (إيبولا) .. »
- « وليس أى فيروس نرعى سمعنا عنه .. »

★ ★ ★

وبدا واضحاً فى الوجوه أن مجموعتنا التى انضم
إليها (ديفيد جيديون) تضم مجموعة من الأشباح
الذين انتهى أمرهم ..

(برنات) فى حجره وحدها - طبعا - بينما يقم البروفسور العظيم (آرثر شلبى) مع (ديفيد جيديون) فى حجره أخرى .. إنه لقاء السحاب كما يقولون بين طب المناطق الحارة وعلم الأمراض ..

ثم من المفترض أن أقيم أنا مع (ليفى) فى غرفة واحدة .. لكنى رفضت فى شمع وأصررت على الإقامة مع الممرض (بودرجا) فى غرفة واحدة ..

- « معاد للسامية ! »

قالها (ديفيد جيديون) فى اشمزاز .. فقلت بلا مبالاة :

- « بل معاد للإسرائيلية .. هذا من حقى .. »

وعرفت أن (ليفى) قد تعرض للعدوى حين فحص حالة من (العيون التى تسيل دما) .. فقد افترض الأهالى أنها حالة من أمراض العيون .. ويبدو أنه لمس المريض وشم قدرًا لا بأس به من أنفاسه ..

إننى معرض للموت .. وهذه الأشواك فى حلقى قد تقول وقد لا تقول أشياء كثيرة .. لكنى سعيد .. سعيد .. إننى - بأمر رئيس الوحدة - سجين مع الطف مخلوق فى الوجود .. كلا .. لا أتحدث عن الممرض

الكاميرونى (بودرجا) بالطبع .. وإنما أتحدث عن (برنات) الطبيبة الكندية الحسنة .. ربما كانت ساعات قصيرة .. لكنها أشبه بوجبة العشاء السخية التى يقدمونها للمحكوم عليهم بالإعدام ..

★ ★ ★

وفى المساء زارنا المدير فى سجننا ..

ولم أكن قد عرفت أن الأمور بهذا السوء حتى رأيتة ومن معه ، فهم يرتدون ثياب رواد القضاء الواسعة الفضفاضة .. ويتحدثون من وراء نافذة من البلاستيك فى وجوههم .. وأراهن أن هذه الثياب سيتم تعقيمها بالليزر بعد ترك المكان ..

المستوى الرابع ! رباه ! ليس مزاحًا بالتأكيد ..

- « كيف حالكم ؟ »

- « بخير .. لم يمت أحد للأسف .. »

ضحك فى عصبية .. ثم سألنا عن أية أعراض جديدة ..

لم يكن هذا سوى سؤال عابر ، فهم يأتون لنا كل يوم صباحًا ليمثلوا عشرات النماذج ، ويأخذوا عينات من بولنا ودمنا ومسحات من حلوقنا ويرغمونا على البصق فى أطباق (بترى) ..

قال لنا المدير :

« إن الأمور تزداد سوءًا بالخارج .. ويبدو أن معدلات الوفاة ٩٧ ٪ أو أعلى قليلاً .. هناك قرى بأكملها تعاني المرض ، وقد اضطررنا للاستعانة بقوات الجيش لحصارها .. حتى لا يتركها الأهالي .. »
سألته :

- « وما هي الأخبار في (ياوندي) العاصمة ؟ »
- « قلق عام .. وقد تحولت إلى مركز كبير لمنظمة الصحة العالمية .. »

الحق أن الأمر أخطر بمراحل من (الإيدز) ..
إن (الإيدز) مرض شرس لكنك بشيء من الحيطة والعفة يمكن أن تضمن ألا يصيبك أبداً .. يمكنك أن تقول في ثقة : أنا لن أموت بفعل (الإيدز) وغالبًا يصح ظنك .. لكن فيروسًا مجهولاً لا يعرف أحد كيفية انتشاره مثل هذا الذي تتكلم عنه ؛ كابوس حقيقي ..
هل ينتقل بالتنفس ؟ هل ينتقل باللمس ؟ هل ؟ هل ؟
هل أنت مصاب به ؟ فلماذا لم تمت بعد ؟
هل هو كامن ينتظر ؟ أم ماذا ؟

قال المدير :

- « لقد وجدنا الفيروس في دم اثنين منكم .. لكن الأعراض لم تظهر بعد .. لذا لن أزيدهم قلقًا على قلق .. »

وابتسم في لطف .. وقال :

- « هل من شيء ترغبون فيه ؟ »

قال (بودرجا) في لهفة :

- « زوجتي .. هلا أبلغتموها أنني بخير ؟ »

- « بلى .. سنفعل يا (بودرجا) .. وثق أنها بخير

ما دامت بعيدة .. »

وهز رأسه محيياً وانصرف ..

★ ★ ★

وكان اليوم التالي يوم سعد في تاريخ الفيروسات ..
إنه يوم مولد فيروس نر في جديد يفوق كل ما سبق ..
وقد اصطلح على تسميته باسم (كافاموجورو) نسبة إلى الاسم الذي أطلقه (البانتو) عليه .. ومعناه - كما قلنا - العيون التي تنزف دماً ..

تمكنت معامل (سافاري) من فصله وتصويره وقياسه ، ويبدو أن (بارتليه) قد صار يرى جائزة (نوبل) في العلوم الطبية أمام عينيه لو ظل حياً ..

٩- مريض .. ومريض !

(عفاف) وآلام صدرها .. كيف لم يخطر هذا
ببالي ؟ العالم كله أناس يمسون بصدورهم ويقولون ..
ماذا يقولون ؟ دعهم يقولون .. من قائل هذه العبارة ؟
هل هو (تشرشل) ؟ الملك (فاروق) داعب
(تشرشل) في حفل عشاء وسرق ساعته .. لكن هذا
لم يقبل الدعاية .. الكلبتومانيا هي داء السرقة .. لكن
(نسرين) تأبى أن أتزوجها .. لم تحبني قط .. الحاجة
كانت تبكي حين غادرت المنزل .. وقال (أشرف) إن
النمور ستلتهم مؤخرتي لكن هذا لم يحدث ..
لا يبدو لي أن هناك نمورا في (الكامبيرون) .. هناك
غوريللا وشمبانزي وأفيال وغزال (إمبالا) الجميل ..
(الزولو) شرسون .. لكن لا يوجد (زولو) في
(الكامبيرون) .. أستاذ يهودي وطبيب إسرائيلي .. هل
هذا معزل أم هو الكنيست ؟ هل (برنات) يهودية ؟
مصيبة ! لم أسألها قط ولم يخطر لي هذا ببالي ..

لكني لم أشعر بهذه الانتصارات لأنني كنت مريضا ..
لقد بدأ فيروس (كافاموجورو) يؤثر في جسدي ..
وحيثما دخلت الحمام وشعرت بالغثيان ..
وحيثما أفرغت ما بمعدتي في حوض غسل
الوجه ..

وحيثما رأيت الدم الأحمر يلطخ كل شيء ..
عندها عرفت أنها النهاية ..



www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com



- « إنه في تحسن .. »

قالها الوجه ذو القناع وهو يقيس لى الحرارة وضغط الدم ..

إنهم يعطوننى دماً .. يضحون لترات عديدة فى عروقى .. لكنهم لا يعرفون أننى انتهيت .. بالتأكيد انتهيت .. أرى خرطوم (القسطرة) الخارج من جسدى .. إنه ملىء بالدم .. رباه ! إننى أنزف ! كل هذه الأفتعة المحيطة بى .. هل هو غزو من المريخ ؟ مستوى رابع .. مستوى رفيع فى الثانوية العامة .. مستوى الماء .. مستوى زيت المحرك .. مستوى الذكاء .. أنا

★ ★ ★

- « إنه فى تحسن .. »

قالها الوجه ذو القناع وهو يقيس لى الحرارة وضغط الدم ..

سمعت الممرضة ذات القناع تقول :

- « تهاتينا يا د. (علاء) .. أنت من القلائل

الذين فعلوها .. »

قلت بصوت متحشرج كمحرك سيارة بعد ليلة شتاء :

- « أنا أصبت بالفيروس ؟ »

- « نعم .. ونجوت منه .. »

- « كنت أعرف هذا .. تلك الدبابيس فى حلقى .. »

- « لقد ظللت محمومًا أربعة أيام .. وكنت تهذى
طيلة الوقت .. »

قال الرجل ذو القناع الذي فهمت من لهجته أنه
ياباتى :

- « أنا (ساتو أوشيمو) .. »

- « د. (ساتو) .. لم أتعرفك بهذا القناع المريخى .. »

قال بصوت يبدو أنه يبتسم :

- « لقد نزلت لترات عديدة من الدم .. لم تكن
نملك سوى حقنك بالدم وفيتامين (ك) و (الإنترفيرون) ..
لا ندرى إن كان (الإنترفيرون) صاحب الفضل أم

أنت ، لكنك نجوت .. »

- « الله صاحب الفضل الوحيد .. »

سألنى فى فضول وهو يعد نبضى :

- « بم تشعر ؟ »

- « أشعر كذباية انتهى من امتصاصها عنكبوت .. »
وأرحت رأسى إلى الوسادة ، ولم أدر كيف غبت

عن الوجود ..

★ ★ ★

قال بروفيسور (بارتليه) وهو يجلس جوار فراشى ..
القناع على وجهه وصوت الفحيح من جهاز الأكسجين
يحجب ما يقول :

- « لقد وجدنا تشابها هائلا - حوالى ٩٥ ٪ - بين
الجين الخاص بفيروس (إيبولا) وفيروس
(كافاموجورو) .. »

سألته وأنا أحاول استعادة توازنى :

- « هل تعنى أنهما نفس الشيء ؟ »

- « بل أعنى أنهما كاتا نفس الشيء ؟ »

- « تعنى حدوث طفرة جينية أدت لجعله أكثر
شراسة ؟ »

- « نعم .. وهى طفرة فى قدرته على العدوى
وسرعة انقسامه .. وطفرة كهذه لا تتم بهذه السرعة
ما لم تكن بفعل فاعل .. هناك من تلاعب بقواعد
الهندسة الوراثية الخاصة بالفيروس .. وأنتج هذه
السلالة عاتية الشراسة .. »

- « تعنى تجارب حربية لإنتاج سلاح بيولوجى ؟ »

- « نعم .. »

- « ومن الوغد الذى يفعل هذا ؟ »

ابتسم وتراقص الشحم في خديه ، وهو يقول :

- « ما أكثر الأوغاد ! لكن هناك دولتين قادرتين على شيء كهذا .. (فرنسا) و (الولايات المتحدة) .. فليهدما المعامل التي تجعل هذه المهمة هينة .. لو كانت (فرنسا) في الموضوع لكنت أنا - (موريس بارتليه) - في فريق العمل إن لم أكن رئيسه .. »

- « إذن تبقى أمامنا (الولايات المتحدة) .. »

- « هذا هو ما نبحث عنه .. إن إثباته عسير .. لكن هذا سيجعلنا نعرف كل شيء عن فيروسنا هذا .. ومهمتك البحث سرًا عن الحقيقة .. »

- « ولماذا أنا بالذات ؟ »

- « لأنك صرت تحمل مناعة دائمة ضد الفيروس .. ويمكنك البحث والتنقيب غير مسجون في بذلة فضاء كالتى نرتديها .. »

ثم قال بلهجة خطيرة :

- « مهمتك يا (علاء) هي أن تذهب إلى القرية التى شهدت أول حالة من حالات الفيروس .. حاول أن تفهم كيف بدأ كل شيء .. »

شعرت بأننى فى المشهد الافتتاحى لإحدى حلقات

(المهمة : المستحيل) وتوقعت أن يقول لى : « هذا القرص سيحترق ذاتياً بعد عشر ثوان » أو : « لو تم القبض عليك سننكر أية علاقة لنا بك .. »

لكنه لم يقل .. فقط أردف فى حرج :

- « إن ثلاثة من زملائك فى المعزل قد بدعوا يشكون من آلام الحلق منذ ثلاث إلى خمس ساعات .. وأنت تعرف ما نريده منك .. »

- « (برنات) ؟ هل هى ؟ »

- « نعم .. و (ليفى) و (شلبى) .. »

هنا فهمت ما يريد منى ..

إن دمي - بصفتي شفيت - لملىء بالأجسام المضادة للفيروس .. ومعنى هذا أنه هو العلاج الوحيد المعروف للمرض ..

سيعاملوننى كالحصان الذى يستخدم فى تحضير الأمصال .. سيقومون بتقييدى واستنزاف دمي ..

- « لا بأس .. من أجل (برنات) .. »

- « و (شلبى) و (ليفى) ! »

- « لن أعطي قطرة دم واحدة لهذا الشيء .. »

ابتسم فى رقة وقال :

- « حاول أن تسمو فوق الخلافات القومية من أجل الإنسانية .. لقد احتل الألمان وطني وقتلوا قومي .. واليوم ماذا تبقى من هذا الصراع ؟ لا شيء .. يمكنني أن أتبرع بدمي لألماني جريح والعكس .. »
- « إن الألمان لا يحتلون وطنك الآن .. ولو منحت دمك لألماني في أثناء الحرب لقتلتك المقاومة الفرنسية بتهمة الخيانة العظمى .. »

قال بسهولة غير متوقعة :

- « كما تشاء .. »

ونهض لينصرف ، وكنت أتوقع منه جدلاً أكثر ..
النتيجة المنطقية واضحة : سيعطون من دمي لـ (ليفي) برغم كل شيء ، ولن أعرف ذلك أبداً ..
ليكن .. فأتانا لن أمتنع عن التضحية بأي شيء من أجل (برنادت) و (شلبي) الذي هو إنسان برغم خبثه الشديد ..

★ ★ ★

وعند العصر أخذوا مني لتراً من الدم على مرتين .. وهو كم كبير من الدم .. لكنهم سيستخلصون منه حوالي نصف لتر من البلازما ، يقومون بتنقيته وتخليصه من الشوائب ، ثم يحقنونه للآخرين ..

وبهذا تنتهي مهمتي كعلاج للفيروس ؛ لأنهم لن يستطيعوا أخذ المزيد من دمي قبل ثلاثة أشهر ، ما لم يرغبوا في قتلي ..

وفي المساء ذهبت لزيارة (برنادت) في حجرتها في المعزل ..

رباه ! شد ما تغيرت !

الكندية الشقراء الحسناء ترقد في الفراش ، وقد تحول شعرها إلى حزمة كتان مبعثرة .. وخراطيم تخرج من فمها وأنفها .. وقناة وريدية في ذراعها .. ومئات الشرائط اللاصقة في كل مكان .. وكانت شاحبة كحرباء مذعورة ..

لم أجد ما أقول من كلمات .. فربت على ذراعها البارد ..

وبطرف عيني لمحت شاشة (المونيتور) فوق

رأسها .. النبض (٨٠) الضغط ($\frac{100}{60}$) .. لا بأس ..

إن دمي يؤدي عمله جيداً .. وتصورت - في حسرة - ما تشعر به كرياتى الحمراء وهي تجري في عروقها الفاتنة وتدخل قلبها .. إن الدم أكثر حظاً من صاحبه في أحيان كثيرة ..

قالت هامسة بصوت مبجوح كفرملة شاحنة :
- « علمت بما قمت به .. وإبنى لأشد .. أشكرك .. »
- « أشكريني على أشياء اختيارية .. أشياء أستطيع
أن أرفض عملها .. »

وكتمت جيشان الكلمات الذي راح يحاول جاهداً أن
يخرج ..
وأخيراً استطعت تحويل جملة (أنا أحبك بجنون)
إلى (قالوا لى إنك تتحسنين) .. وياله من مجهود
مذهل ! لقد احتشد العرق على جبيني من فرط الجهد ..
قالت لى :

- « أنا مدينة لك .. ولكن هل سيظروا على الوباء
بعد ؟ »

- « إنه فى ذروة نشاطه .. »

إن كل الأوبئة تنتهى بعد فترة إذا تم السيطرة على
مصادر انتشارها .. فالمرضى يموتون أو يشفون
والجراثيم تضعف ..

لكن من الواضح أننا ما زلنا فى المنحنى الصاعد
للوباء ..

★ ★ ★

١٠- المهمة : المستحيل ..

يقع إقليم (أداماوا) شمال (الكامبيرون) ، وهو
أرض جبلية ممتدة تنحدر دون نعومة إلى مجموعة
من المستنقعات تفصله عن بحيرة (تشاد) ..
والجفاف والتصحر هما السمة الغالبة على (أداماوا)
على عكس باقى (الكامبيرون) التى تنعم بالأمطار
طيلة العام ..

ولقد راحت السيارة (اللاندروفر) تتخطى عبر
طرق شديدة الوعورة وقرى غاية فى الفقر تبعث
الكآبة فى النفس ، بينما الشمس الحارقة تشوى
أفقيتنا حتى ليوشك البخار أن يتصاعد مع رائحة اللحم
المحمر ..

وكنت أنا فى السيارة مسلحاً بكل ما يلزم طبيبياً فى
(إفريقيا) : بندقية - كاميرا - جهاز كاسيت .. ولا بأس
من بعض أجهزة الكشف طبيعياً .. جهاز ضغط -
سماعة - ترمومتر - أنابيب عينات .. إلخ ..

لم يكن هناك داع للبندقية طبعاً .. فأتانا لن أستعملها ..
لكن هذه هي تقاليد الطب الإفريقي كما وضعها (ألبرت
شفايتزر) ..

وجواري في (الجيب) يجلس (بودرجا)
الممرض الذي نال جرعة لا بأس بها من أجسامي
المضادة .. ومهمته هي مهمته الدائمة : الترجمة عن
لغات البانتو والبانطويد والسواحلية .. إلى الفرنسية ..
وبدأنا ندنو من قرية (مزيمبا) ، وهي القرية التي
تذكر التقارير التي جمعها د. (مايرز) في دراسته
الوبائية أنها موطن الوباء ..

فهنا مات الكثيرون ، ومات ساحرا القبيلة اللذان
حاولا عمل شيء من أي نوع ..

وبدأت أرى عربات الجيش الخضراء .. ورأيت
مدرعتين تتحركان في تودة نحو القرية ..

وكان هناك حاجز موضوع على الطريق ، ووحدات
من الجيش الكاميروني تقف بجواره ، على حين كانت
السنة الدخان الأسود تصاعد من بعيد ..

كان الأمر أشبه بكابوس مجسم ملون ..

★ ★ ★

برغم أنني أبرزت بطاقة (سافاري) مرارا لأكثر
من حاجز على حدود القرية ، ولأكثر من جندي
كاميروني صلب الوجه يسد مدفعه الرشاش سوفيتي
الصنع إلى وجهي ؛ فقد كانت مهمة تفسير وجودنا
هنا عسيرة .. وراح (بودرجا) يعيد قصته في كل
مرة عندها يسمح لنا الجندي بالمرور إلى عائق
آخر ..

إن هذا الجو العسكري المتوتر يجعلني أشعر
بتقلص في معدتي .. وأتصرف بالضبط كأنني شخص
مريب .. إن ارتباكى يجعل الجميع يشكون في أمرى ..
وأخيراً وجدت بعض رواد الفضاء .. أعنى الأطباء
الذين يرتدون ثياب رواد الفضاء .. وكانوا يحملون
محفة عليها كتلة من الدم أدركت بصعوبة أنه رجل
لا يكف عن الصراخ والهستيريا ..

كانت هناك خيام يبدو أنهم استخدموها كعنابر ،
وفي داخل كل خيمة كان هناك مريض أو اثنان على
الأرض ، وقد علقت لهم المحاليل الوريدية بالتنقيط ..

دنا مني أحدهم .. وهتف بالإنجليزية التي أدمرتها
اللكنة الأمريكية :

- « ماذا تفعل هنا يا أحمق؟ الهواء ذاته ملوث .. »
الحق أنه كان صادقاً .. فرائحة الموت جلية لا يمكن
أن تخطئها ..

ومن حولي تناثرت لافتات التحذير : منطقة وباء ..
المستوى الرابع .. كافاموجورو .. الويل لكم .. إلخ ..
قلت للرجل وأنا أبرز أوراقى :

- « أنا من وحدة (سافارى) .. ومسئول عن نفسى
لأن المفترض أننى أملك مناعة ضد الفيروس .. من
أنتم؟ »

قال وهو يهز كتفيه :

- « نحن من الـ CDC .. ولا أحد يملك مناعة ضد

الفيروس .. »

- « من رئيسكم؟ »

أشار إلى أحد رواد الفضاء الذى وقف وفى يده
لوح كتابة ، وراح يصدر أوامره بالإنجليزية الأمريكية
جداً إلى من حوله ..

أما أوامره فكانت بسيطة جداً لا تحتاج إلى إمام
بالإنجليزية ..

ثمة حفرة عميقة .. رأيتهم يحملون إليها عشرات

الجثث الغارقة فى دمانها .. جثث زنوج بؤساء .. ثم
راح الرجال يرشون عليها محلولاً مطهراً من خزانات
فوق أكتافهم ..

وابتعد الرجال بينما دنا أحدهم ، ومن خزان مماثل
على ظهره رأيته يصوب فوهة قاذف اللهب على
الحفرة ..

وسرعان ما تصاعدت النيران .. ومعها الدخان
الأسود .. ورائحة اللحم المحترق .. وفهمت سر
الدخان المخيم على القرية ..

رباه ! إن كل هذا شنيع ..

★ ★ ★

جاء العجوز يتوكأ على عكازه .. وقد رسم الزمن
ندوبه على كل سنتيمتر من جلده الأسود كالحبر ..
وكان يرتجف هلعاً وشيخوخة ..

قال لى رئيس الرجال الفضائيين وهو ينصرف :

- « خذ وقتك معه .. يبدو أنه لن يصاب بالوباء ..

لا بد أن لديه مناعة طبيعية برغم سنه المتقدمة
هذه .. »

جلس (كوزونجا) شيخ شيوخ القرية على الأرض ..

والرجفة لا تفارقه .. فجلست جواره و (بودرجا) ..
قال الرجل شيئاً ما وهو يمسك رأسه بكلتا يديه ..
- « يقول إنه لم ير هولاً كهذا طيلة سنواته
المائة .. »

قالها (بودرجا) مفسراً بالفرنسية ..
قلت له :

- « اسأله عن بدء المرض .. »

راح يثرثر مع العجوز بضع دقائق .. لغة الإيماءات
بليغة جداً ومعبرة .. ثمّة شيء راق في ملامح هذا
الشيخ مما لا يمكن وصفه .. قطعة من الفن الرفيع ..
ولو أنصفت لقلت إن الفن ليس هو الجمال بالضرورة ..
الفن هو الإنسانية الصادقة ..

في النهاية قال (بودرجا) :

- « يقول إن الوباء بدأ مع (جومبا) ذي التعجات
الثلاث .. لقد ملأت زوجته القرية صراخاً حين وجدته
ينزف دماً دون جرح .. وحاول الساحر شفاؤه دون
جدوى .. بل إن الساحر ذاته نزف دماً من أحشائه
ومات .. »



جاء العجوز يتوكأ على عكازه .. وقد رسم الزمن ندوبه
على كل سنتيمتر من جلده الأسود كالجبر ..

- « والزوجة ؟ »

- « ماتت .. »

★ ★ ★

ورحت أستمع إلى كلام فارغ لا نهاية له عن الأحداث الشنيعة المعتادة في هذه الأوبئة .. مشكلة إفريقيا هي أنها لا تعرف الاستقرار .. دائماً تلك الأسرة البائسة الخائفة تفرّ بمتاعها القليل من الحرب الأهلية ، فإن لم يكن فمن الوباء ، فإن لم يكن فمن الفيضانات أو الجفاف .. ولا يعرف العالم عنها سوى تلك اللقطة العابرة في نشرة أخبار التاسعة ..

لكن هذا الحديث يطول وليس المجال مجاله ...

سألت العجوز :

- « هل تعرف شيئاً يتعلق بالبيض ؟ شيئاً حدث قبل الوباء ؟ أو هل غادر (جومبا) القرية لفترة قبل مرضه ؟ »

راح مترجمي ينقل له سؤالي الطويل .. فهزّ هذا رأسه مفكراً .. يبدو أن هذا الموضوع لم يخطر له ببال ..

بعد هنيهة قال كلاماً كثيراً ...

بدا الاهتمام على (بودرجا) فراح يستعيد بعض المقاطع .. ثم قال لي :

- « رجل أبيض جاء القرية منذ أسابيع .. معه حقائب كثيرة ويبدو خائفاً .. أمضى يومين معنا ثم فارق القرية .. ولا نعرف إلى أين ذهب .. »

- « أسأله هل فتحوا الحقائب أو عرفوا ما بها ؟ » عاد يثرثر مع الشيخ بضع دقائق .. ثم قال لي :
- « يقول إنه لا يعرف .. لكن أهل القرية كانوا يرمقونها في إعجاب .. وكان الجميع ينتظرون الأعاجيب منها .. »

هكذا بدأت خيوط القصة تتضح لي ..

١ - رجل أبيض معه حقيبة تثير خيال القرويين ..
٢ - (جومبا) هو الإفريقي الذي لم يستطع التحكم في فضوله ..

٣ - (جومبا) يتسلل إلى خيمة الرجل ويسرق الحقيبة ..

٤ - يا للحسرة ! الحقيبة لا تحوى سوى أنبوب اختبار مغلف بالقطن .. لا ذهب .. لا ماس .. لا دولارات ..

٥ - (جومبا) يهشم الأبواب في غيظ فيتناثر الرذاذ على وجهه ..

٦ - في الصباح ينهض (جومبا) محمومًا ينزف ..
السؤال الآن : أين ذهبت الحقيبة ؟
من المستحيل الإجابة عنه لأن الرجل - حتمًا -
أحسن مداراة كنزه الصغير .. بالتأكيد لم يفتحها في
كوخه ...

وهنا خطرت لي فكرة ..

سألت العجوز عن طريق مترجمي :

- « أين كان (جومبا) يرعى نعجاته الثلاث ؟ »
لدقائق يتكلم العجوز .. وهو يشير إلى تل رملي
قريب تناثرت عليه بعض النباتات الصحراوية ..
لم أحتج لسماح الترجمة .. إذ رحت أهروول نحو
التل .. وأسلفه في كثير من الغناء حتى وصلت
لأعلاه ..

ومن فوقه كنت أرى حدود القرية ، ورواد الفضاء
المتناثرين في كل صوب ، والخيام المنصوبة كعنابر ،
وحفرة حرق الموتى ..

مشهد بانورامي جميل جدًا ..

والأجمل منه هو فضلات الماعز أو الخراف المتناثرة
- لا أعرف الفارق بين نوعي الفضلات للأسف - في
لهيب الشمس الحارق ..

جلست على ركبتي .. وتخيلت أنني الفلاح
الكاميرونى الفقير (جومبا) ، ومعه حقيبة صغيرة
يكاد يجن لهفة على فتحها ، غير عالم أنها تحوى
الهلاك ، وأنها صندوق (بندورا) الملىء بالأرواح
الشريرة ..

استغرق البحث عشر دقائق ..

وفى النهاية وحدث شظية زجاج رقيقة .. إن
شظية كهذه تشير الريبة حقًا .. فلا يمكن أن تكون
مهشمة من كوب أو دورق ..

أين يحاول الرجل إخفاء الحقيبة ما دام أخذها فوق
التل كي ينفرد بها ؟

بالتأكيد تحت هذه الصخرة .. فلا توجد صخور
أخرى ..

رفعتها بكثير من عناء لأجد تحتها فتحة صغيرة ..
كدت أمد يدي بلهفة باحثًا .. لكنى - وأشكرها على
ظهورها - لمحت رءوسًا دقيقة لثعابين تبرز

سأخذها معي .. لكني لن أفتحها الآن .. فالله
وحده يعلم أية مفاجآت سارة قد تكون فيها ..
وضعتها في كيس بلاستيكي ، ودسستها في جيبى ،
ثم رحت أهبط التل مهرولا ..

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

وتتوارى داخل الفتحة ، وعيونها السوداء ترمقنى فى
فضول مستريب ...

هذا هو الدرس التاسع أو العاشر فى إفريقيا :
لا تدس يدك فى أية فتحة لا تعرف ما بداخلها ، حتى
لو كانت فتحة قفازك ..

مددت يدي بحثاً عن عصا أو شىء يصلح
لاستكشاف الحفرة ..

أخيراً وجدت غصناً بلا أوراق ، فمددت يدي أعابث
الرمال الرطبة وفى النهاية اصطدمت بجسد صلب ..
كان العرق يغمر وجهى ولحيتى .. والشمس تجعل
الرؤية مستحيلة ..

لكنى تمكنت من توسيع الحفرة .. حتى وجدت
حقيبة سوداء فى حجم هذا الكتيب .. لكنها صلبة
مدعمة الجوانب أنيقة جداً برغم الغبار الذى يكسوها ..
من جيبى أخرجت قفازين لبستهما .. ثم عالجت
الحقيبة حتى نجحت فى إخراجها بالكامل وركلتها
بقدمى مرتين .. وتراجعت ، حتى تأكدت من أن شيئاً
لا يتعلق بها .. وعدت أدنو منها فى حذر ..

- « لكننى طبيب فى وحدة (سافارى) .. ومن
حقى أن »
قال فى غلظة :

- « لا دور لـ (سافارى) هنا .. هذه القرية تحت
الحكم العسكرى لقوات الجيش .. وتحت إشراف الـ CDC
العلمى .. أى أنكما دخيلان ها هنا »
(كوبرا) ! هذا هو اسم الفيلم الذى رأيت فيه
بندقية كهذه .. لكن هذا ليس مهماً الآن .. المهم هو
الخروج بكنزى الصغير ..
لكنهم كانوا صارمين .. طلبت منهم استعمال جهاز
اللاسلكى أو إجراء مكالمة هاتفية ، لكن لم يكن لديهم
وقت لهذا الهراء ..

★ ★ ★

أمام أحد الأكواخ المتداعية ، جلست مع (بودجرا) ..
كان يتحدث فى مائة موضوع فى نفس اللحظة ،
ويلوك بعض الجذور التى يهوون مضغها ها هنا على
سبيل المزاج .
كنت شارداً الذهن أفكر فى سبيل الخلاص من هذه
الورطة ..

١١ - مشكلة الإياب ..

كان هذا كافياً جداً ..
إن ما أريده فى هذه الحقيقية السوداء .. ولا أحسب
هناك مشاكل فى فحصها فحصاً دقيقاً .. من المؤكد
أنها سرقت من معمل وهذا المعمل هو الذى قام
بتطوير فيروس (كافا موجورو) أو تحويره عن
فيروس (إيبولا) الفتاك ..
ولحقت بـ (بودجرا) فطلبت منه أن يتهيأ للرحيل ..
لكننا وجدنا أن القرية مغلقة تماماً .. وأفهمنا واحد
ممن يرتدون ثياب رواد الفضاء أن الدخول إلى القرية
عسير .. لكن مغادرتها مستحيلة ..
نسيت أن أقول إنه كان يحمل بندقية آلية جميلة الشكل
كالتى يحملها (سلفستر ستالونى) فى الأفلام التى
كنا نراها فى فيديو المقهى عندما كنت فى مصر ..
أحسست بالحيرة .. هل المطلوب منا أن نبقى
ها هنا حتى نموت ؟

الحقيقية أو العلبة السوداء فى جيبي ، وأنا لست
(كوبرا) ذاته أو (كوماندو) كى أخرج بندقيتى
وأخطف سيارة ، وأفتحم الحصار ..

رحت أتأمل ما يفعله رواد الفضاء هؤلاء ..

كانوا يتنقلون ما بين كوخ وآخر .. وبعضهم كان
يرفع الأحجار المتناثرة هنا وهناك .. وكان معظم
الأكواخ خاليا بعد ما مات ساكنوه ؛ لهذا كانوا يقلبون
ما تبقى من متاع حقير خارج الكوخ .. ويركلونه
بأحذيتهم أو بفوهات بنادقهم لمعرفة ما به ..

ليس هذا مسلك أطباء حتى ولو كانوا مسلحين ...
هو أقرب إلى مسلك من يبحث عن شيء معين ..
كان الكوخ الذى نجلس أمامه خاليا .. لهذا تأكدت من
أن أحدا لا ينظر إلى ثم زحفت على ركبتي لأدخله ..

سألنى (بودجرا) :

- « هل تبغى تلبية نداء الطبيعة ؟ »

- « شيء كهذا .. »

- « لكن القرية كلها أمامك .. »

- « إننى أعانى من (المثانة الخجول) .. لا بد

من أن أخلو بنفسى .. »

وداخل الكوخ الذى بدأ يصير مظلمًا - فالشمس
تدنو من أفقها الغربى - مددت يدا لهفى إلى الحقيقية
السوداء ..

لا جدوى من ارتداء القفازات لأنه لو كان هناك
فيروس آخر بها ، فاحتمال انتقاله بالتنفس لا بأس به ..
إن الفضول قتل القط .. وأنا قط كبير ..

★ ★ ★

لم تكن مغلقة .. هذا طبيعى إذا كان (جومبا) قد
استطاع فتحها ..

كانت مبطننة بالإسفنج الرغوى .. ووجدت شعرا
صغيرا لم أدر كنهه VRU ؟ مطبوعا على البطانة
بالداخل ...

VRU ؟ طبعا لا بد من وجود كلمة (فيروسات)
Virology و (بحث) أى Research .. ولعل الـ U
الأخيرة ترمز إلى Unit أى (وحدة) .. هذه الحقيقية
آتية من وحدة أبحاث فيروسات فى مكان ما .. وهذا
يعنى أن ظنى فى موضعه غالبا ..

وكان هناك اتبعاجان فى الإسفنج يسمحان بوضع
أنبوبتى اختبار بحجم إصبعك السبابة ، بافتراض أنك
تعانى داء العملاقة ..

كانت إحدى الأبوبتين في مكانها ، والأخرى
انتزعها أحدهم .. لا بد أنها تلك التي بدأت هذه
المأساة ..

وتأملت الأبوية في فضول .. إنها من الرصاص
وقد أغلقت بإحكام .. لا بد أن الزجاج بالداخل .. وقد
كتب عليها Strain # 056A ..

دسستها في جيبى جوار قلبي .. ثم رحت أنقب في
الحقيقية عن المزيد من المعلومات ..

هذه وريقة صغيرة مطوية تم وضعها بعناية تحت
طبقات الإسفنج .. مددت يدي وفتحتها .. صبراً إن
كشافي معي ..

دست الكشاف الرفيع بين أسناتي ، وصوبته نحو
الورقة .. وعلى الضوء الخافت المتراقص قرأت
بالفرنسية هذه السطور :

« إنهم في إثري وأعتقد أنهم في أغلب الاحتمالات
سيجدوننى ويقومون بالتخلص منى .. أنا د. (ميشيل
جوبير) الذى عمل لفترة في معهد (باستور) ثم
انتقل للعمل في الولايات المتحدة الأمريكية ..

« لقد عملت في أحد المعامل التى يشرف عليها

الجيش لتطوير سلاح بيولوجى من فيروس (إيبولا) ..
وقد قمت بسرقة سلالتى الفيروس اللتين وصلنا إليهما ،
وجئت إلى إفريقيا بغرض بيعهما لمن يدعى (ماكس
فرايدمان) .. وهو اسم مستعار لأحدى همزات الوصل
ما بين المافيا والنازيين الجدد ..

« لقد أغراني المال والشيك الذى سيودع باسمى
في أحد بنوك (سويسرا) ، ويحتوى على ستة أرقام
أو أكثر .. لكنى قد دنوت من النار أكثر من اللازم
حتى أوشكت على الاحتراق بها ..

« إن الجميع فى إثري منذ وصلت إلى (ياوندى) ..
ولا أدري إن كانوا من المخابرات الأمريكية أم النازيين
الجدد الذين يحاولون الحصول على الفيروس مجاناً ..
« تعرضت لثلاث محاولات قتل .. وفى الغالب لن
أنجو من الرابعة .. و (فرايدمان) غير موجود
ولا أدري مكانه ..

« لهذا كتبت هذه الرسالة ودفنتها مع الحقيقية
ها هنا .. فإن متأمل أن يجدها أحدهم ويرسلها إلى
الصحافة ، ليعرف الجميع أية مؤامرة شيطانية تدور
فى معامل VRU فى (بنسلفانيا) ..

« لكنى - بطبيعة المقامر - ما زلت آمل فى أن
أعود لأسترد هذه الحقيقية يوماً ما ، وأبيعها لمن يملك
ثمنها .. »

انتهت الرسالة المكتوبة بخط متعجل ردىء .
إنها غريزة المنتحرين الشهيرة : كل منتحر يحاول
جاهداً أن يبرر نفسه للعالم .. برغم أنه فارقه
باختياره إلى عالم لا يحتاج إلى هذه المبررات ..
هو ذا الأخ (جوبير) يعرف أنه ضائع تماماً ..
لكنه لا يقاوم شهوة أن يورط قاتليه بأى طريقة ..

والآن أعرف حقيقة أخرى .. لم يسرق (جومبا)
الحقيقية ويدفنها هنا .. بل هو - فى الغالب - وجدها
مصادفة .. نعجة من نعجاته راحت تدق بحافرها فى
هذا الموضع ، أو انتزعت جذور نبتة ما .. عندها دنا
(جومبا) ووجد الصندوق - الحقيقية - العلية .. فتحها
ليرى ما بها .. وجد أنبوب الاختبار الأول .. كسره ..
ثم عاد إلى كوخه ليمرض ويموت ..

أما عن (جوبير) فالله وحده يعرف مصيره ..
من السهل أن تموت فى إفريقيا السوداء فلا يعرف
أحد أنك مت ولا يجد جثتك أحد ..

وارتجفت وأنا أنظر إلى الأنبوب الرصاصى ..

هذا الأنبوب كان قادراً على قتل الألوف ، وإحداث
كارثة فى شمال البلاد .. فماذا عن أنبوبين ؟ من
النادر أن يرى المرء الوباء وقد تمت تعبنته فى
أنبوب ..

★ ★ ★

خرجت من الكوخ ، فجلست جوار (بودجرا) ..
الأنبوب فى جيب صدر قميصى ، ومعه الرسالة
المقتضبة ..

والليل يدنو من الأفق معلناً ملكوت الظلام ..
سألنى (بودجرا) وهو يبصق بعض الجذور :
- « تفو ! يبدو أنك تعاني إمساكاً مزمناً
يا دكتور .. »

- « أحب أن أعطى كل شىء وقته .. »
ورحت أتأمل المشهد أمامى ..
كانت الكشافات العملاقة مضاعة فى كل صوب
لتحيل الليل نهاراً ..

وطائرة هليوكوبتر تجول فى أرجاء السماء باحثة
بكشافها عن شىء ما .. على حين راح رواد الفضاء

يدخلون - من حين لآخر - شاحنة عملاقة هي واحدة
من ثلاث شاحنات ، يبدو أنها مخصصة للمبيت
ولاستعمالها كمقصف .. ويمكنهم - حتماً - بالداخل
أن ينزعوا ثيابهم الثقيلة هذه وينعموا بقسط من
الراحة ..

ورأيت أحدهم يدنو منا حاملاً كيساً من البلاستيك ،
ألقاه أمامنا وقال من وراء خوذته الثقيلة :

- « هذا عشائركما .. »

حركة (إتيكيت) لا بأس بها .. إنهم لن يتركونا
نقضى جوعاً على كل حال .. بطاطس محمرة
(هامبرجر) رديء جداً .. وعلبتا مياه غازية ..

رحنا نأكل كالأبقار .. ثم شعرت بجفاف في حلقى
فناديت هذا الطبيب / الجندي الذي جلب لنا الطعام
قائلاً ما معناه :

- « حبة مية وحياة والدك .. »

هز رأسه في فتور .. ودخل إلى إحدى الشاحنات ..
ثم عاد لي حاملاً كوبين ورقيين وضعهما على الأرض
وابتعد ..

جرعت الماء وأنا ألاحظ في استمتاع أنه لم يجرو
على لمسنا ..

لا بد أن هذه الشاحنات تحوى حاجتهم من الماء
النقى .. ولا بد أنهم يرتدون طاقماً آخر من الثياب
داخل الشاحنة كي يتمكنوا من لمس صنوبر الماء
وخلافه ..

رائحة الحريق والدخان ..

إنهم يحرقون مزيداً من الجثث في الحفرة إياها ..
وفي عقلي أكثر من خاطرة وشك و ...
في اللحظة التالية رأيت مشهداً لا يُصدق ..

★ ★ ★

رأيت ثلاثة من أهالي القرية يقفون في ركن قصي ،
وقد حنوا رءوسهم في استسلام ..

ورأيت أحد رواد الفضاء هؤلاء يرفع بندقيته الآلية ..
ثم خمس أو ست طلقات .. بعدها سقط الرجال الثلاثة
وسط الرمال ، بينما الدخان يفعم الجو .. ورائحة
البارود تتصارع مع رائحة اللحم المحترق في الحفرة
إياها ..

صحت في هلع وأنا أقف على قدمي :
 - « (بودرجا) ! إنهم يعدمونهم ! »
 فتح فاه باحثًا عن كلمات فلم يجد .. عدت أصيح :
 - « ليس هذا حجرًا صحيحًا .. وليس هؤلاء من
 الـ CDC .. إنهم مجرد قراصنة .. »
 - « ربما كانت لهم الصلاحية كي ... »
 - « صلاحية القتل ؟ إن هذا الحماس في الطب
 الوقائي غير معتاد وغير مطلوب .. »
 كانت ساقاي ترتجفان .. فأتا رأيت كثيرين يموتون ..
 لكني لم أر أحدًا يقتل قبل اليوم .. ولم أصدق القوة
 الغاشمة التي تحركها إرادة غاشمة كهذه .. كيف
 يجرف إنسان على إنهاء حياة إنسان آخر بهذه
 البساطة ؟
 إذن هم لا يحتلون القرية من أجل حمايتها ..
 إنهم يبحثون عن ذات الشيء الذي هو في جيبى
 الآن ..

هل هم من المافيا أو النازيين الجدد ؟ بالطبع لا ..
 فلا يوجد منظمة دولية إرهابية لها القدرة على



رأيت ثلاثة من أهالي القرية يقفون في ركن قصي ، وقد حنو
 رؤوسهم في استسلام ..

اختراق هذه الحدود .. بل وتمارس فرصتها تحت
حماية الجيش الكامبروني ..

إن الجيش الكامبروني لا يعرف شيئاً عما يحدث
بالداخل .. إنه يكتفى بالحصار .. ومحرقة الجثث
تستوعب كل شيء : من مات بالوباء ومن مات
بالرصاص .. لا فارق هنالك وسط الرماد الساخن ..

توجد جهة واحدة ودولة واحدة تملك هذه الإمكانيات
العملية ، وتستطيع ترتيب الأمر مع حكومة
(الكامبرون) ، وترسل فريقاً من السفاحين يحملون
أوراقاً مزورة تقول إنهم علماء من CDC أو منظمة
الصحة العالمية ..

دولة واحدة ..

دولة يهملها استرداد الفيروس بعد ما جرّبت قوته
على الطبيعة وبعد ما استطاعت تحديد موضع هذه
القرية بدقة متناهية .

دولة واحدة !

★ ★ ★

وكان الجميع منهمكين في مراقبة عملية الإعدام
باستمتاع ..

نظرت بطرف عيني إلى الشاحنة التي جلب لنا
الرجل الماء منها ..

وابتلعت ريقى ..

خطرت لى فكرة لا بأس بها ..

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H

www.dvd4arab.com

١٢- الإعدام ..

إن الرفق في محاربة العقارب لخطأ قاتل ..

★ ★ ★

كان الباب مفتوحاً في إهمال .. لا بد أن الأهالي
الباقيين يهابون الدبو من هذا المكان ..
نظرت حولي فلم أجد أحداً ينظر إلى ..
هرعت جرياً إلى الشاحنة فدخلتها وقلبي يتوالب
كالطبل ..

ودرت بعيني في المكان الخالي ..

كانت هناك ثياب فضاء معلقة على المشاجب ..
ومقاعد متناثرة ..

وجهاز اتصال معقد ليس أمامه أحد ..

وكان هناك خزان ماء مزود بآربعة صنابير ، كتب
عليه (ماء شرب) .. كيف أستطيع فتحه ؟ يوجد
صمام في أسفله .. لكنه صمام معقد جداً لن أفهم
كيفية فتحه إلا بعد سبعة وأربعين عاماً ..

صوت أشخاص يتحدثون .

(رياه ! لو وجدوني هنا لأعدموني فوراً !)

الخيمة .. هناك من يدنو ..

رحت أتحمس الخزان في لهفة .. وأخيراً تلمست
أصابعي كوة في جزئه العلوي .. كوة تغطيها صامولة
بلاستيكية كبيرة ..

حاولت فتح الصامولة ولكنها ..

(لماذا لم أترك أظفاري تنمو ؟ إنها تفيد في هذه الأمور)

صلبة جداً هن ! هن !

أخيراً استجابت لي ..

وأدركت أن الخزان مفتوح الآن .. مفتوح كقلب

صديق ..

★ ★ ★

رفعت جذعي إلى أعلى ، حتى صار بوسعي أن
أدخل كتفي في الكوة .. بالواقع أدخلت كتفي وذراعي
الأيمن ..

إن الفكرة التي لم أجد خيراً منها هي محاولة تفريغ
هذا الخزان ..

فماذا ستكون النتيجة ؟

ستحدث فوضى لا بأس بها .. فهؤلاء الغزاة لن يشربوا من ماء القرية الملوثة أبداً .. وعندها سيطلبون المدد من الخارج .. وستتحرك إحدى الشاحنات مغادرة القرية ، وعندها يمكن أن أختبئ فيها أنا و (بودرجا) ..

خطة واهية جداً لكنى لا أجد خيراً منها .. وهكذا رحلت أبحث عن طريقة لفتح الخزان من الداخل ..

راحت أناملى المغمورة فى الماء البارد تفتش عن شىء ما ، لكن لا شىء .. فقط الجدار الصلب للخزان .. وهنا سمعت صوت شىء يرتطم بالقاع .. ما هذا ؟ هل هو ساعتى !؟

يا للهول ! وسرعان ما أخرجت ذراعى المبتلة بالماء .. وتحسست جيب قميصى .. هذا ما توقعته .. لقد ترحزح الأنبوب وسقط فى مياه الشرب ! إننى لأحمق .. من يدرى ؟ ربما كان الأنبوب محكم الغلق ..

وربما لن يحدث تسرب . لكن من يضمن هذا ؟ لم يعد هناك حل سوى التنازل عن كبريائى ،

وإبلاغ هؤلاء السادة الظرفاء أن أنبوباً مليئاً بالفيروسات موجود فى ماء شربهم .. وهذا سيستدعى بالطبع أن يعرفوا كل ما وصلت إليه .. لا أدري حقاً ما يلى ذلك .. لكن الماء الفيروسي ليس مما أحب تقديمه للناس حتى الأوغاد منهم ..

واستدرت كى أخرج أعلن لهم الحقيقة .. كان هذا حين تلقيت الضربة العنيفة على مؤخرة رأسى ..

بدأ الظلام يسود ، لكنى - فى ذلك الوقت الوجيز - عرفت أنهم اكتشفونى فى شاحنتهم .. وأن أحدهم ضربنى بـ (دبشك) البندقية على رأسى ..

لم يتركوا لى الفرصة كى أفسر لهم .. أن ..
* * *
ظلام دامس .. ثم لا شىء ..
* * *

صحوت عند الظهيرة وكنت على الأرض فى العراء .. عجباً ! كيف نمت كل هذا الوقت ؟ لا بد أن الأمر بدأ كإغماء ثم إننى واصلت نومى

السعيد بعدها .. ومن الواضح أنهم ترددوا بشأن قتلى ..

لم أجد (بودرجا) جوارى ، فنهضت مذعورا أبحث عنه ..

وكان ما رأيت عجباً ..

عشرات من رواد الفضاء يرقدون على الأرض وسط الرمال ..

بعضهم يتلوى ألماً ، وبعضهم ينزف الدم من منخريه وعينييه ، فكأثما المشهد لوحة سريالية مجنونة امتلأت ببقع حمراء على أرضية صفراء زاهية ..

ووجدت أن القرويين و (بودرجا) يحاولون إنقاذ هؤلاء القوم ..

كانت الخوذات منزوعة .. والثياب ممزقة أو مهترنة .. وجوار الشاحنة وجدت أحدهم جالساً على الرمال وأمامه جهاز إرسال صغير .. وكان يردد في مكبر الصوت بصوت مبحوح :

- « (ماى - داى) .. (ماى - داى) .. أكرر ..

الوباء قد ... »

ثم غلبته نوبة سعال .. وسرعان ما تطاير الدم من فمه وسقط رأسه ليرتطم بالجهاز ..

يبدو أنهم شربوا كثيراً من أكواب الماء ليلاً .. ويبدو أن أنبوب الاختبار لم يكن محكماً .. ويبدو أن السلالة 056A # كانت أكثر شراسة من السلالة المماثلة لها ..

لقد حقق الوباء رقماً قياسياً في سرعته ..

هرعت إلى (بودرجا) الذى كان يسقى جرعة ماء لأحد المرضى من رواد الفضاء بعد ما نزع خوذته وأرقده في الظل ..

صحت فى هلع :

- « من أين جئت بهذا الماء ؟ »

- « من البئر .. لماذا تسأل ؟ »

لم أرد .. هرعت إلى الشاحنة المفتوحة فاخترت بذلتين من البذلات المعزولة .. ارتديت إحداها ووضعت خوذتها على رأسي ، ثم خرجت بالأخرى إلى (بودرجا) وأمرته أن يحذو حذوى ..

- « ولكن ... »

- « لا لكن .. إننا لفي خطر داهم .. »

- « والمناعة التي نلناها ؟ »

- « هذا الفيروس أكثر شراسة مما تتصور .. »

وارتدى بذلته .. فركضنا إلى إحدى سيارات الجيب
الواقفة ، فركبناها .. واندفع (بودرجا) يقودها إلى
طريق الخروج من القرية ..

وكانت ثيابنا بمثابة بطاقة مرورنا وسط المدرعات
والعربات التي تحاصر القرية ..

فلم يحاول أحد منعنا من الخروج ..

وبعد دقائق كنا في طريقنا إلى (سافاري) ..

★ ★ ★

أعاد البروفسور (بارتليه) قراءة الخطاب الذي
كتبه مواطنه قبل أن يموت .. وهز رأسه غير
مصدق ..

ثم عاد يسألني :

- « ولم تجد أثرا لهذا الأنبوب ؟ »

- « لا شيء .. لقد اختفى من على وجه البسيطة .. »

- « والوباء الذي فتك بأفراد الـ CDC في القرية ؟ »

- « لا بد أن تلوثنا قد حدث في طعامهم أو شرابهم .. »

- « يقول (بودجرا) أنكما تناولتما وجبة من

طعامهم .. »

قلت في نفاذ صبر :

- « لا يمكن أن تلومني على أنني لم أصب بالوباء

ولم أمت .. لقد حاولت ما بوسعي لكنني فشلت .. »

نظر لي في حيرة .. واهتز الشحم في وجهه البدين ،

والتمعت عيناه الضيقتان بنظرة من يريد قول شيء

لكنه لا يدري كيف يبدأ ..

أخيرا قال لي :

- « لقد اتصلت بالـ CDC أرسلت لهم (فاكس) ..

والنتيجة غير عادية .. لا يوجد واحد من رجالهم في

إقليم (أداماوا) بأسره ..

إن من رأيهم ليسوا من الـ CDC .. »

- « غريب ! إذن هم من الصحة العالمية .. »

- « لا هذا ولا ذاك .. »

- « يا للهول ! إنك تشير رعيبي .. إذن من كانوا ؟ »

- « لا أدري .. لا بد أنهم من جهة يهتمها الحصول

على الفيروس .. »

- « وما أهمية ذلك ما دام كل واحد في القرية
يحمل الفيروس ؟ »

ابتسم في سخرية .. وقال :

- « الفيروس الخام المركز .. إنك لن تحتفظ بألف

إفريقي في خزانتك لاستخدامهم كسلاح بيولوجي ..

لكنك تستطيع الاحتفاظ بأنبوب اختبار .. »

وهز رأسه كمن يتذكر :

- « (ميشيل جوبير) .. كان عبقرياً .. وقد عرفته

لفترة لا بأس بها في معهد (باستور) .. لكنه كان

نفعياً وصولياً .. وكانت له عبارته الشهيرة التي كنا

نأخذها على سبيل المزاح :

لو خيروني بين دمل في أنفى وبين أن تزول

(نيكاراجوا) من على الخارطة لما ترددت لحظة ..

إن دامل الأنف مؤلمة للغاية ! »

فكرت في العبارة بضع دقائق ، وبدأت لي معقولة

جداً .. فعلى مستوى المعاني المجردة لا تبدو

(نيكاراجوا) بهذه الأهمية .. مجرد اسم بلد لا نعرف

شيئاً عن ثقافته ولا موضعه على الخارطة .. لكن

دامل الأنف أشياء حقيقية واقعة أليمة جداً ...

قال (بارتليه) مواصلاً تفكيره الشارد :

- « لقد تلاعبوا بجينات الـ (إيبولا) ليجعلوا منه

كابوساً لا قبل لنا به .. وقد حان الوقت لا تخاذ

سياسة (الكي) .. »

- « الكي ؟ »

- « نعم .. يجب إزالة القرى المنكوبة من على

الخارطة .. »

- « والأهالي ؟ »

- « سيتم وضعهم في معزل كبير واحد تحت رقابة

الجيش ، وإشراف طبي حقيقي من وحدة (سافاري) .. »

- « حتى يموت من يموت ويشفى من يشفى .. »

- « لن يموت الجميع .. هناك (الإنترفيرون)

و (الريبافيرين) .. وهناك مائة ناج يمكن لمصلهم أن

ينقذ خمسمائة غيرهم .. »

★ ★ ★

وبناء على الاتفاق بين الجهات الثلاث والحكومة ،

تم ترحيل المرضى وأقربانهم إلى قرية على بعد ثلاثة

أميال من (ماروا) ..

ثم حلفت عشر طائرات قاذفة تحمل علامات السلاح
الجوى الكاميرونى ، لتسقط عدة أطنان من القنابل
الحارقة على القرى التى تم إخلاؤها ..

واستحال الليل نهاراً وتصاعد الدخان إلى عنان
السماء ..

وعندما جاءت الظهيرة - بعد غارات استمرت طيلة
الليل - جاءت لتجد الرماد الساخن فى كل مكان ..

وقد محيت ست قرى من الوجود
أما بالنسبة لوحدة (سافارى) فقد كان العمل فى
بدايته ..

تحركت ثلاث شاحنات إلى (ماروا) تحمل العتاد
والأطباء وثياب رواد الفضاء إياها ، وكنت أنا فى
إحداها مع (برنادت) .

وقضينا شهراً من العمل المتواصل فى المعسكر
العشوائى الذى تم اختياره لعزل المرضى ..

تبأ لها من ليال تفوح بريح الموت والمرضى !
لكننا - بعد شهر - أدركنا أن معركتنا مع المرضى
قد انتهت ، وأن الفيروس قد قرر أن يحمل عصاه
ويرحل ..

لقد مات كثيرون ، ومن عاش أصابه التهاب مخى
نحمد الله أنه لم يصبنا به ..

وفى تلك الليلة همست لـ (برنادت) وأنا أرمى
الشمس الغاربة :

- « الإنسان هو أكبر أحمق عرفه الوجود .. حتى
النعامة لم يبلغ حمقها درجة أن تضيع الوقت باحثة
عن طريقة لقتل النعام .. »

قالت وهى تمدد ساقها على الأرض بعد عناء
اليوم :

- « إن التسلح غريزة لدى الأحياء جميعاً .. »
- « لكن كل هذا الدمار .. هذا الشقاء .. هذا
البؤس ... »

وصمت .. إذ لم أجد الألفاظ التى تعبر عما أريد
قوله ...

★ ★ ★

وفى مكان ما من (بنسلفانيا) كان البروفسور
(ماكميلان) جالساً مع جنرال (فورسايت) الذى
لا يرتدى ثياباً عسكرية ..

يقول جنرال (فورسايت) :

- « نحن واثقون من أن (جوبير) قد حمل معه عينتين .. »

ويقول البروفسور :

- « بل ثلاثاً .. أنا واثق من هذا .. كانت لدينا في الثلاثة ثلاث عينات هي 056A ، 056B ، 056C .. »
- وما هو أخطرها ؟ »

- « كلها خطيرة .. لكن السلالة 56C هي أسوأ ما عرفناه .. إن وباء (الكامبيرون) الذى سببه النوعان الأولان لهو نوع من الزكام إذا قورن بالوباء الثالث .. »

ويقول الجنرال ..

- « كل مصادرنا تؤكد أن (جوبير) لم يحمل معه إلى إفريقيا إلا عينتين ، وقد تمكنا من انتزاع هذا منه قبل قتله .. إن من يحترقون بالكهرباء لا يجدون وقتاً للكذب .. »

يقول البروفسور فى عصبية :

- « وأنا أقول إنه كذب عليكم .. ثمة أبواب ثالث .. »

- « إن كان الأمر كذلك فمن أخذه ؟ »

★ ★ ★

حقاً من أخذه ؟

من هو ذلك الرجل المرتبك ذو المعطف الأسود ،
الواقف فى طابور الجمرى فى مطار (هيثرو) ؟
وماذا ينوى عمله ؟

ما سر ذلك الجسم الأسطواني الرصاصى فى جيبه ؟
كنا نعتزم الإجابة .. لكن الحادث - للأسف - بعيد
عن نطاق عملنا هنا فى (سافارى) ..

د. علاء عبد العظيم
(أنجاونديرى)

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
(تمت بحمد الله)
Hany3H

www.dvd4arab.com

سافارى

مغامرات طيب شاب ينام

لكن يغفل حيا ويغفل طبيبا

روايات مصرقة الحبيب

٢٧١٤

الوباء



د. احمد خالد توفيق

فى قلب الأحرش الإفريقية تحرك فى
بطء .. ترعرع .. ثم بدأ يحبو فيمشى فيهرول
فيرمح فى سرعة جنونية ، مبعثرا الدماء
والموت فى كل صوب .. تاركًا وراءه خطأ من
القبور والجثث المحترقة ..
كان يتحرك بسرعة .. وكان على وحدة
(سافارى) أن تتحرك بسرعة أكبر قبل أن
يفتصر الوباء ..

www.dvd4arab.com
Hany3H

العدد القادم :
خاطفو الأجساد

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

طبع والنشر والتوزيع
٢٧١١٥١ - ٢٧١١٥١ - ٢٧١١٥١
٢٧١١٥١

العدد فى مصر ١٥
وما يقابله بالدولار الأمريكى
فى سائر بلدان العربية والعالم